الاحتيال والمحتالون بين المعاش والمقاومة
« صورة من صور الصراع الاجتماعي في المجتمع العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين » (*)

د. أمل إبراهيم أبو سنة
قسم التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الملخص:

شهد المجتمع العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين تفشي ظاهرة الاحتيال واتساع طائفة المحتالين نتيجة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، أسفرت عن صراع طبقي معلن أحيانًا وغير معلن في كثير من الأحيان، كان الاحتيال أبرز صوره، فقد وجد المحتالون في أعمال الاحتيال وسيلة لكسب الزرق ممن ضيقوا سبله عليهم، ووسيلة لانتزاع حقوقهم ممن منعوها عنهم، وسبيلاً للتكيف مع أوضاعهم، والدفاع عن أنفسهم والانتقام من سطوة أصحاب الأموال ممن أهانوهم وانتقصوا من شأنهم.

استهدف هذا البحث تعريف الاحتيال والمحتالين، والأسباب التي ساعدت على تفشي فكر الاحتيال، والتوجهات الجديدة لأصحاب رؤوس الأموال، وعجز الدولة عن تحقيق التوازن بين الطبقات، ثم تطرق للحديث عن أنواع المحتالين، وفنون احتيالهم، كما حرص على تقديم صورة متكاملة عنهم، وأبرز ملامح فكرهم وفلسفتهم، ومهاراتهم وكيفية تعايشهم في مجتمع تسوده قوة المال وسطوة أصحابه، وسبل مقاومتهم والدفاع عن مصالحهم، كما اهتم البحث بالعمق الاجتماعي لهذه الطائفة من خلال الحديث عن انتماءاتهم الطبقية، وجماعات الدعم والمساندة لهم، ودور الأسرة في ذلك، وأخيرًا موقفهم من المجتمع وموقف المجتمع منهم.

الكلمات المفتاحية: الاحتيال والمحتالون – الاحتيال بالدين – الجرائم المالية لأصحاب الثروات – القضاة والمحتالون – اكتناز المال والبخل به – المعاش – مهارات المحتال– فنون التمثيل.

(*) مجلة "وقائع تاريخية" العدد (٤٢)، يناير ٢٠٢٥.

Fraud and Fraudsmen Between Livelihood and Resistance *(A Type of Social Conflict in Abbasid Society During the 3rd and 4th Hijri Centuries / 9th and 10th CE)*

Abstract

The Abbasid society of the 3rd and 4th centuries AH (9th and 10th CE) witnessed widespread fraud and the expansion of a class of fraudsters. This phenomenon emerged in response to the economic and social pressures of the time, culminating in a social conflict that was sometimes overt yet often covert. Fraud became one of the starkest manifestations of this strife. Fraudsters found in their deceptive practices a means of livelihood when other avenues were closed to them, a tool to wrest their rights from those who had denied them, and a method to adapt to their circumstances, defend themselves, and avenge the dominance of the wealthy elites who humiliated and belittled them.

This research aims to define fraud and fraudsters, identifying the factors that fuelled their emergence. It explores the techniques employed by these marginalised groups to challenge the inequalities of their time, delves into the types of fraudsters and the arts of their deception, and presents a comprehensive image of their philosophies, skills, and eventual fates in a society dominated by the power and influence of wealth. The study concludes by examining the social standing of this group, their class affiliations, their support networks, and society's mixed reactions to them, including familial roles in both aiding and opposing them.

Keywords

Fraud and fraudsters; Religious fraud; Financial crimes by elites; Judges and fraudsters; Hoarding wealth and miserliness; Livelihood; Fraudsters' skills; Dramatic arts; Resistance by the marginalized

المقدمة :

شهد المجتمع العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين تفشي ظاهرة الاحتيال كمًا وكيفًا ونوعًا، فقد اتسعت طائفة المحتالين عددًا، وتنوعت أساليبهم وفنونهم كيفًّا ونوعًا، وأجادوا وأحكموا صياغة فلسفتهم، وأذاعوا فكرهم ونشروا مبررات أفعالهم، وافتخروا وتفاخروا بسحر حيلهم، وتباهوا بإبداعات أكاذيبهم، وذلك بهدف خلق رأي عام لدعمهم ومساندتهم، وسعيًا لإضفاء المشروعية على أفعالهم، وهروبًا أو تغييرًا للصورة الواقعية، وسترًا لما غلب عليهم من عدوانية تجاه أغنياء عصرهم وأثريائه. والملاحظ أن هذه الطائفة لم تستطع فرض وجودها على المجتمع فحسب، بل نجحت في كسب تعاطف كثير من القطاعات الاجتماعية ممن وجدوا فيهم تعبيرًا عن غضبهم وسخطهم من مظالم مجتمعهم، ووسيلة للتشفي والانتقام من أصحاب الأموال والأعمال ومكتنزي الثروات ممن سعوا بأطماعهم وممارساتهم في تكريس فقرهم، وامتهان كرامتهم والتقليل من شأنهم، وزيادة معاناتهم وحرمانهم، كما استطاعوا بملكاتهم الفذة ومواهبهم غير المحدودة من انتزاع اهتمام من عاصرهم من أدباء وشعراء جعلوا من أخبارهم ونوادر حيلهم وفنون أكاذيبهم موضوعات لمؤلفاتهم ومحاور لمصنفاتهم.

كان تفشي تيار الاحتيال واتساع طائفة المحتالين نتيجة حتمية لظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية مر بها المجتمع العباسي خلال فترة الدراسة، كان في مقدمتها استفحال رؤوس الأموال، وسعي بعض أصحابها المحموم نحو الاستحواذ على المزيد منها، والسيطرة على مقدرات البلاد ونهب خيراتها واكتنازها والضن بها والاقتصاد في إنفاقها، فشاع بينهم البخل والشح والربا والاحتكار وغيرها من ممارسات ألقت بظلالها الكئيبة على باقي طبقات وفئات المجتمع،

وساعدهم على ذلك ضعف الخلافة العباسية، وتردي أداء الخلفاء وعجزهم عن التصدي لهم وحماية الطبقات الدنيا من آثار ممارساتهم وأطماعهم، الأمر الذي اغرى أصحاب الأموال هؤلاء بمزيد من الاستغلال دون مراعاة لأي أبعاد اجتماعية أو مصالح عامة.

أسفرت هذه الظروف عن صراع طبقي – معلن أحيانًا وغير معلن في أغلب الأحيان – تنوعت صوره وتعددت أشكاله، فكان الاحتيال أبرز صوره، وأوسعها فنونًا وانتشارًا، وأشرسها نكاية وانتقامًا، وأخفاها كيدًا ومكرًا، فقد وجد المحتالون في أعمال الاحتيال وسيلة لكسب أرزاقهم ممن ضيقوا سبلها عليهم، ووسيلة لانتزاع حقوقهم ممن منعوها عنهم، وسبيلاً للتكيف مع أوضاعهم، والدفاع عن أنفسهم، والانتقام من سطوة أصحاب الأموال ممن أهانوهم وانتقصوا من شأنهم، وذلك برد الكيل لهم واستغلال غفلتهم وفضح أطماعهم، الأمر الذي كان يثير فزعهم ويمثل تهديدًا حقيقيًّا لهم، ولا أدل على ذلك من شهادة الجاحظ أشهر مؤرخي عصره والشاهد العيان على أحداثه عندما قال: "لو جمعت الجفر والسحر والتمائم لكانت حيلهم في الناس أشد تغلغلاً وأسرى في عمق البدن، ولو اتخذت الحيطان الرفيعة الثخينة والأقفال المحكمة الوثيقة، ولو اتخذت الممارق والجواسق والأبواب الشداد والحرس المتناوبين بأغلظ المؤن وأشد الكلف، ولو جعلت الباب مبهمًا والقفل مصمتًا، لتسوروا عليك من فوقك، ولو رفعت سمكه إلى العيوق لنقبوا عليك من تحتك ".

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الاحتيال من أكثر الوسائل أمنًا وأمانًا للمحتال، إذ لم يكن عليه سوى أن يخدع صاحب المال، فيقع في براثنه ويقدم له ماله طواعية وبكامل إرادته ورضاه، فإذا ما طُولب بما أخذ، ساق من الأعذار وحُسن النوايا ما يفلته من العقاب وينقذه من الوقوع تحت طائلة القضاء، صورة من صور المقاومة السلبية، مقاومة المقهورين لسلطة الأثرياء وأصحاب الأموال.

هذا البحث سيُلقي الضوء على الاحتيال والمحتالين، وذلك من خلال

تعريفهم تعريفًا دقيقًا يميزهم عن غيرهم من أصناف المتكسبين، والظروف العامة التي ساعدت على تفشي فكر الاحتيال واتساع طائفة المحتالين في المجتمع العباسي، وفي هذا البحث سيتطرق الحديث عن التوجهات الجديدة لأصحاب رؤوس الأموال، وآثارها المجتمعية، وموقف الدولة آنذاك، وعجزها عن التصدي لها وتحقيق التوازن في المجتمع، مما ساعد على إذكاء الصراع الاجتماعي بصوره وأشكاله، وفي هذا الصدد لم يغفل البحث عن الجانب الثقافي والمتمثل في شيوع فكر التحايل على كافة المستويات كنتيجة طبيعية للرفاهية المادية والفكرية التي سادت هذا العصر.

كما سيسلط البحث ضوءًا على بعض صور وفنون الاحتيال وحيل المحتالين وأصنافهم وأنواعهم، الأمر الذي يقود للحديث عن صورة المحتال في الأدبيات التاريخية وسماته، وكذلك أبرز ملامح فكره وفلسفته، وذلك بهدف تقديم صورة متكاملة عن كيفية تعايش هؤلاء المغلوبين في مجتمع تسوده قوة المال وسلطة أصحابه، وسبل مقاومتهم والدفاع عن مصالحهم، كما سيهتم البحث أيضًا بالعمق الاجتماعي لأعضاء هذه الطائفة من خلال الحديث عن انتماءاتهم الطبقية وجماعات الدعم والمساندة لهم ودور الأسرة في ذلك، ونظرتهم للمجتمع، ونظرة المجتمع لهم، وموقف الدولة ومؤسساتها وعلى رأسها القضاء من نشاطهم. وأخيرًا موقف المجتمع بطوائفه منهم، خاصة الأغنياء وأصحاب الأموال.

لعله من حسن الحظ توفر الكثير من كتب الأدبيات التاريخية، وفي مقدمتها مؤلفات الجاحظ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني، ومصنفات الخطيب البغدادي وغيرها من مصادر كانت تُعد وبحق مرآة صادقة لهذا العصر، وقد أمدت الدراسة بكثير من التفاصيل التي أعانت على تقديم هذا البحث بكل ما يعتمل في صدور أبطاله من نوازع وأفكار ومشاعر، وغيرها من معلومات دعمت صدقها وواقعيتها المصادر التاريخية التقليدية وعلى رأسها كتب القضاء والقضاة.

أما عن الإطار الجغرافي والزمني للبحث، فهو كما وضح في العنوان

"المجتمع العباسي" والمقصود به تحديدًا بغداد حاضرة الخلافة، وما حولها من كبريات المدن العراقية كالبصرة وغيرها ، وكان اختيار الدراسة لهذا المجتمع لما تميز به من كثافة سكانية عالية، وتأثره المباشر بالسياسات العباسية والتطورات الاقتصادية، وما أسفر ذلك عن تفاوتات طبقية وصراعات اجتماعية، فضلاً عما برز فيه من علماء وأدباء ومفكرين استطاعوا بدقة ملاحظاتهم وعمق رؤيتهم من رصد هذه العلاقات الاجتماعية في مؤلفاتهم. أما عن اختيار القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين إطارًا زمنيًّا للدراسة، فذلك يرجع إلى أنها فترة شهدت ما أصاب الدولة العباسية من ضعف سياسي واقتصادي عقب عصر قوتها وذروة ازدهارها مما ساعد على رصد تطور المجتمع ، وما طرأ علي بنيته الاجتماعية من تغييرات .

أما عن منهج الدراسة: فقد اتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي ، والذي يعتمد على جمع المادة العلمية ذات الصلة بالموضوع من المصادر المتنوعة والمعاصرة لفترة الدراسة سواء كانت مصادر تاريخية أو أدبية أو فقهية، ثم صنفت هذه المعلومات مع النقد والتحليل لاستجلاء وجه الحقيقة المجردة، وإعادة صياغتها في سياق البحث ، ومع حرص الدراسة على تحليل المعلومات، فقد حرصت كذلك على استنتاج النتائج، وأخيرًا عرضها عرضًا تاريخيًّا وافيًا.

كما اعتمد البحث منهجًا علميًا في تفسير ما ماج به المجتمع من تيارات اجتماعية وصراعات طبقية في سياقها التاريخي، وعلاقة ذلك بالتحولات الجذرية التي شهدتها الدولة العباسية على المستويين السياسي والاقتصادي ، وأثر ذلك على البنية الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد.

الدراسات السابقة:

ذخرت المكتبة التاريخية بكثير من المصنفات والمؤلفات التي تناولت العديد من جوانب الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية بعصريها الأول والثاني، كما ظهرت بعض الدراسات الأدبية الرصينة التي اتخذت من "المقامات" مجالاً لدراستها سواء من الناحية الفنية أو اللغوية، وعلى رأسها دراسة الدكتور علي

الراعي وعنوانها "المحتال في المقامات والحكايات والرواية والمسرحية "، وقد صنفت هذه الدراسة في باب الأدب المقارن، إذ ركزت على أثر المقامات العربية في الأدب الأوربي ، وفي نشأة الرواية الواقعية الأوربية خاصة فن القصص الأسباني ومن ثم الفرنسي والألماني. وهي بذلك قد سلطت الضوء على صورة المحتال في الأدب العالمي.

أما في مجال الدراسات التاريخية، فلا توجد دراسة تاريخية اتخذت من الاحتيال والمحتالين في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين موضوعًا لها، ولم تحظ هذه الفئة بدراسة مستقلة اهتمت بالعمق الاجتماعي والنفسي والإنساني لأفرادها، وتوضح فلسفتهم في الحياة في إطار صراعهم مع مجتمعهم، وأبعاد هذا الصراع وصوره وآثاره ، ومن هنا جاءت أهمية هذه الدراسة وجدتها .

الاحتيال لغة واصطلاحاً:

أ) الاحتيال في اللغة:

جاء في معاجم اللغة أن الاحتيال من الحيلة، يُقال: حال يحول حِيلة، والحيلة من الحَوْل، يُقال لا حيل ولا قوة إلا بالله، وقد انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. ويُقال: أحيل منه أي أكثر حيلة، ويُقال: ما له حيلة ولا احتيال ولا محال بمعنى واحد، وأورد ابن منظور في لسان العرب أن الاحتيال والتحول والتحيل والحيلة والحَويل والمَحَالة بمعنى الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف؛ لأن فاعلها يتحول من حال إلى حال، والاحتيال مطالبتك الشيء بالحيل، والحُول: الدواهي، يُقال جاء بأمر حُولة أي بأمر منكر عجيب، ويُقال للرجل الداهية إنه لحُولة من الحُول أي داهية من الدواهي، والداهية نفسها حُولة[1]. وعلى ذلك فالاحتيال هو اللجوء إلى الحيلة، ورجل محتال هو من يلجأ إلى أساليب الاحتيال لتحقيق أهدافه.

وقد يُراد بالاحتيال المراوغة وقلب الباطل حقًّا والتوصل بما هو حلال لما هو حرام، أو بما هو مشروع لما هو غير مشروع، فالمحتال يقلب الباطل وهو الكذب والتزوير والمظاهر الزائفة إلى حق لا يقبل التكذيب، فينساق الناس وراء هذا الباطل الملبوس بلباس الحق، وهذا ما رمى إليه الشاطبي في موافقاته بقوله: " الحيل حقيقته المشهورة هي تقديم عمل ظاهر الجواز لإبطال حكم شرعي وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر، فمآل العمل فيها خرم قواعد الشريعة في الواقع، لذلك فقد قرر حرمة الاحتيال بقصد إبطال الأحكام الشرعية[٢].

وقد يُراد بالاحتيال أيضًا الكيد، فقد أورد الزبيدي في تاج العروس أن المحتال هو "ذو الكيد" فهو عظيم الكيد لأصحاب الأموال لسلب ما بأيديهم منه[٣].

وإجمالا فإن الاحتيال في اللغة يعني الدهاء والحذق والمراوغة ودقة التصرف وغيرها من الطرق الخفية، التي يتوصل بها إلى حصول الهدف بحيث لا يفطن له إلا بذكاء ودقة ملاحظة، ومن الحيل ما هو جائز شرعًا، وهي ما أطلق عليها بالمخارج، ومنها ما هو غير جائز إذا كان المقصود منها محرمًا أو محظورًا.

ب) الاحتيال اصطلاحًا:

أما في الاصطلاح، فالاحتيال يعني استنباط الحيل لاستلاب أموال الناس بالغش والخداع وإيهامهم بما ليس حقيقة، مما يدفعهم لتسليم أموالهم للمحتالين بحضورهم وعلمهم ورضاهم وبكامل قناعتهم[٤]. وبناء على ذلك، فالمحتال يختلف عن اللص وقاطع الطريق، والنهاب والطرار والشاطر والعيار والمكدي وغيرهم من سائر الفئات[٥].

أما في الأدبيات التاريخية، فقد عرفه الجاحظ الأديب الأشهر والمؤرخ الأبرز لعصر الدراسة فقال عنه: "هو التربح والتكسب والاستئكال بالخديعة والطعم الخبيثة "، وأطلق على الحيل وأهلها اسم "الاستئكال والمستأكلين"[٦]، أما عن

جوهر الاحتيال وهدف المحتالين فهو أموال الأغنياء التي كانت هدفًا لسهامهم، وصيدًا لشباكهم، وفي ذلك يقول عنهم: "هؤلاء قوم بودهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حد السلامة إلى الغفلة حتى لا يكون للأموال حارس ولا دونها مانع "[٧].

الظروف التاريخية التي ساعدت على تفشي فكر الاحتيال وانتشار ظاهرة المحتالين في المجتمع العباسي:

في البداية اعتمد الاقتصاد العباسي مبدأ الحرية الاقتصادية ونمو الثروات[٨]. ونجح العباسيون في تكوين طبقة من أصحاب الأموال وحائزي الثروات عن طريق منح الإقطاعات الواسعة والضياع الكبيرة، والعطايا الفائقة، والرواتب العظيمة[٩]. وفضلاً عن ذلك، فقد فتحت الدولة أمام رعيتها جميع المجالات على مصراعيها لاكتساب المال، وامتلاك الثروات، وكان ذلك في إطار قبضة الدولة القوية والتي كانت على وعي كامل بحتمية وضرورة تحقيق قدر كبير من التوازن بين الطبقات كصمام أمان للسلم الاجتماعي والأمن الداخلي.

كان لهذه الطبقة آثارٌ بعيدة المدى في المجتمع العباسي، فقد أضفوا قدرًا هائلاً من الحيوية والنشاط على كافة مناحي الحياة، وأحدثوا حالة من الرواج في كافة الأنشطة الاقتصادية والمالية والعمرانية، وصبغوا المجتمع بصبغة الترف والرفاهية والثراء "واتساع العيش والتفنن في أحواله والتأنق فيه فبلغوا الغاية في ذلك"، على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته[١٠].

من ناحية أخرى، فقد وقع على عاتق هذه الطبقة أعباء مجتمعية كثيرة، إذ شاركت الدولة في مسؤولياتها الاجتماعية، فحملت على عاتقها الدور الأكبر في النهوض بالمرافق والخدمات المجتمعية من خلال أعمال البر والإحسان والصدقات والزكاة، فضلاً عن الأوقاف التي كانت تمثل موردًا رئيسيًّا للإنفاق على التعليم ومؤسساته، والصحة وبيمارستاناتها، والزهاد والمتصوفة وخانقاواتهم، والسجون ونزلائها، والغرباء والوافدين وأماكن إيوائهم، وذوي الحاجة وسبل

إعالتهم[١١]. بل امتدت مظلة خدماتها لتشمل أسرى المسلمين داخل حدود الأراضي البيزنطية وسجونها من خلال توفير الطعام والشراب والأكسية التي كانت تنقذ حياتهم من الموت تجمدًا وبردًا، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان[١٢].

كان مقصدهم في ذلك فضلاً عن التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، هو ضبط حركة المجتمع وإحداث التوازن فيه، وتحقيق الاستقرار بين طبقاته، والتكامل الاجتماعي بين أعضائه، وكسب ود الفئات الدنيا وعوام الناس، واستلال ما في نفوسهم من حفائظ وأحقاد، خاصة وأنهم كانوا على وعي كامل بخطورتهم وقوتهم وعمق تأثيرهم، وأن مصالحهم وأمان أموالهم، وتقدم أعمالهم مرهون باستقرارهم وهدوءهم. وقد كان الجاحظ معبرًا ببلاغته المعهودة عن وجهة نظرهم عندما قال: "ليست للخاصة قوة العامة، ولا للعلية قوة على الأراذل" "فإن العامة إذا انتكثت للخاصة، وتنكرت للقادة وتشزنت (أي خرجت وعصت) على الراضة أي الحكام، كان البوار الذي لا حيلة له والفناء الذي لا بقاء معه".

من هنا كثرت توصيات أهل الفكر والرأي بضرورة مداراة الفقراء وكسب ودهم واحتواء غضبهم، وتفادي الدخول معهم في أي صراعات اجتماعية أو نزاعات طبقية والتحذير من ذلك، وقد راجت في هذا العصر مأثورات عديدة منها: "ما اجتمعوا إلا ضروا" و"قاربوا العامة وباعدوها، وكونوا معها وفارقوها، واعلموا أن الغلبة لمن كانت معه، وأن المقهور من صارت عليه"[١٣]. ومن هنا كان حرص المجتمع بصفة عامة وأصحاب المال والأعمال بصفة خاصة على تحقيق أكبر قدر من التوازن في المجتمع لضمان مصالحهم، وكانت قوة الدولة آنذاك وإحكام قبضها على كافة الأمور ضمانًا لهذا التوازن والاستقرار بين الطبقات.

ومع اتساع الدولة العباسية وظهورها كقوة عظمى سياسيًّا واقتصاديًّا، وكثرة أملاكها وعظم دخلها، وتعدد مواردها، ورواج تجاراتها عابرة البحار والمحيطات[١٤]. كان لذلك انعكاساته الواضحة على رؤوس الأموال التي ازدادت

تضخمًا، وعلى أصحابها فازدادوا ثراءً، فكان ذهبهم يوزن بالأردب، ودنانيرهم توزن بالقفيز[١٥]، وكان الواحد منهم يوصف بأنه " قارون الأمة " وأنه بيت مال يمشي على وجه الأرض، وكان يزن سبائك ذهبه بقبان كما يوزن الحطب[١٦]. وأخذ هذا النظام الاقتصادي يتغلغل بجذوره في أعماق المجتمع، ويصبغه بسماته واتجاهاته، والتي كان في مقدمتها:

أولاً: تعاظم قيمة المال:

تعاظمت قيمة المال في المجتمع العباسي، وأصبح يمثل قوة جبارة لا حدود لها، إذ لم يعد وسيلة لإشباع الحاجات الإنسانية فحسب، بل أصبح هدفًا وغاية، وصار يمثل أهم شيء في الحياة بلا منازع ولا منافس، وقد عبر الناس عن رؤيتهم هذه فيما شاع على ألسنتهم من أقوال وأمثال، منها: "المال المال وما سواه محال"، "المال زينة الرجال وغاية الكمال"، وأصبح المرء تقدر قيمته ومكانته بما يملكه من مال، فقالوا: المال ميزان الرجال"، لا حمد إلا بفعال ولا مجد إلا بمال"[١٧]. وأضحى المال هو المعول الأساسي للحراك الاجتماعي والارتقاء طبقيًا واجتماعيًا، متفوقًا في كثير من الأحيان على العلم الذي كان يشاركه في هذا المضمار، خاصة بعد أن سلم علماء هذا الزمان بسيطرة المال، واعترافهم بسطوته وقوته مستدلين على ذلك بوقوف العلماء على أبواب الأغنياء وأصحاب الثروة والمال[١٨]. وفي ذلك قال أهل هذا الزمان: " لم نر مثل الفقر أوضع للفتى، ولم نر مثل المال أرفع للرذل، فلا يملأ عيون الأعداء ويرعب قلوب المخالفين ويحشو صدور العوام مثل المال "[١٩].

هذه المكانة المتعاظمة للمال، إنما كانت ترجع إلى ما كان يمثله من قيم ومعانٍ اجتماعية وإنسانية؛ تأتي في مقدمتها الشعور بالقوة والسلطة والسيادة والنفوذ والعزة والجلال والمهابة والزهو والافتخار، كما كان الملاذ الآمن من مشاعر الخوف والقلق، فهو مناط الإحساس بالأمان والطمأنينة من غدر الزمان وتقلبات الحوادث والأيام، تغنى به الشعراء وأكثروا، وفي فضله كتب الأدباء

وصنفوا، ومما جاء في ذلك قول شاعرهم:

إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْمَوَاضِعِ كلَهَا تَكْسُو الرّجَّالَ مَهَابَةً وَجَلاَلًا
فهي اللِّسَانُ لَمِنْ ارَاد فَصَاحَةَ وهي السّلامُ لَمِنْ أَرَادَ قِتَالًا

وقال آخر:

إِنَّمَا قُوَّةُ الظُّهورِ النُّقُودَ وَبِهَا يُكْمِل الْفَتَى وَيَسُودُ
كَمْ كَرِيمُ أُزْدَرَى بِهِ يَوْمًا ولِيئم تَسْعَى إِلَيه الْوُفُودَ

وقال ثالث:

يَمْشِي الْفَقِيرُ وكُلُّ شيء ضِدَّهُ وَالنَّاسُ دونهُ تُغْلَقُ أَبْوَابُهَا
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ ويرى الْعَدَاوَةَ وَلَا يرى أَسَبَّابَهَا
حَتَّى الْكلابِ إِذَا رَأَتْ ذَا ثروة خضعت له وَحُرّكْتِ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابرًا نُبِحْتِ عَلَيه وَكُشرْتِ أَنْيَابَهَا[٢٠]

ولعل نظرة متأنية في مؤلفات الجاحظ الذي كان يمثل عصره أفضل تمثيل، نستطيع أن نقف على الدور المحوري الذي كان يمثله المال لأهل عصره، إذ لم يكفهم أن يكون ساترًا للعيوب في الدنيا، بل وشفيعًا لصاحبه في مغفرة الذنوب في الآخرة، فقال:

وَيلْقَى ذُو الْغِنى وَلَهُ جَلاَل يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبهُ يَطِيرُ
قَلِيلُ ذَنْبِهِ وَالذَّنْبَ جَمَّ وَلَكِنَّ لِلْغَنِيِّ رَبٌ غَفُور[٢١]

لم تقتصر قيمة المال على ما كان يسبغه على أصحابه من مكانة اجتماعية ومهابة فحسب، بل وصل بهم الحال إلى أن رسخ في اعتقادهم أثره البالغ في قوة أبدانهم وصحة أجسادهم، فمن مأثوراتهم: "اعلم أن القلب عمود البدن، فإن قوى القلب قوى البدن، وليست للقلب قوة أشد من قوة المال، وبالضد إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن"، لذا كانوا يتظاهرون بالغنى ويرون في ذلك مروءة وفخرًا، وقالوا في ذلك "ما مثل الدراهم من دواء"، و"الدراهم مراهم"، و"قوة الإنسان

بالدينار والدرهم"، والعجيب أن هذا الكلام لم يكن مجازًا تعبيريًا، أو استعارات بلاغية، بل كان حقيقة واقعية، فكانوا يتداوون بالمال، ويتعالجون بالدراهم والدنانير، يقول الأبشيهي: "الأطباء يعلمون أمراضًا علاجها اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق التي يُغلى فيها الذهب"[٢٢]. وحكى ابن الجصاص تاجر الجوهر الشهير ببغداد وأغنى أثرياء عصره (عاش في القرن الثالث الهجري) أنه كان إذا أصابه هَمٌّ وانقباضٌ عمد إلى درج له به جواهر ثمينة ذات ألوان براقة، فيلعب بها بعض الوقت فيزول ما به[٢٣].

في ظل هذه المادية الطاغية، أضحى الفقر هو آفة الآفات وبلية البليات، وأضحى الفقير عاريًا من الفضائل منسوبًا إلى الرذائل، يقول الجاحظ: "اعلم أن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه، واستهان الناس بقدره وازدرى به "[٢٤]. وذخرت الأدبيات التاريخية بالأقوال والمأثورات في مثالب الفقر ورذائل الفقراء، وموقف المجتمع منهم والذي بلغ من عدائه لهم أن وضعهم في " مصاف الأنعام بل هم أضل سبيلاً "، ولم يكتف بذلك بل عدهم في عداد الموتى، يقول البيهقي في المحاسن والمساوئ " جاء في الأثر أن الفقير ميت، عند الناس ميت، وعند الحلال والحرام ميت، الفقر هو الموت الأكبر "[٢٥]، ويؤكد ابن الجوزي في مقاماته هذه الرؤية، فيطلق على الفقراء " أحياء الموتى "[٢٦]، وهكذا أصبح المال هو الحد الفاصل بين الأحياء والأموات.

لم يقتصر الدور المحوري للمال على هذا الحد، بل تدخل في حياة الفقراء الأسرية، مهددًا استقرارها ومنذرًا بقطع الوشائج والعلاقات بين أفرادها[٢٧]. "فالفقير تزدريه حليلته وينهره الصغير"[٢٨]، وتتيه المرأة الموسرة على زوجها وتحرم عليه ما أحل الله له من الزواج من غيرها، وتشتكيه للقضاة وتجرسه بين أقرانه[٢٩]. ولخص ابن الجوزي معاناة الفقير في بيته بقوله: " وتسيء الزوجة عشرتها مع الزوج وربما كلمته بالمكروه "[٣٠] لينتهي الأمر بالطلاق وانهيار بنيان الأسرة، وقد رصدت الدراسة شيوع ظاهرة لجوء النساء إلى القضاة لطلب الطلاق بسبب عجز الأزواج عن توفير ما يتطلعن إليه من حياة الترف والرفاهية[٣١]، الأمر الذي ألقى

بثقله على كاهل علماء وفقهاء هذا العصر الذين أبدوا عجزًا عن التصدي لغزو المال للحياة الأسرية، فجاءت فتاواهم وأحكامهم مواكبة لروح العصر ومسايرة لمطالبه، فاتفق جمهورهم على أن إعسار الزوج وعجزه عن الإنفاق مبررٌ للتفريق بين الزوجين وسببٌ في فسخ عقود الزواج، ولكنهم حاولوا الحد من ذلك عن طريق الاتفاق على وضع حدود دنيا لنفقات الأسرة يلزم بها ربها، منعًا للذرائع وحفاظًا على الأسرة والعلاقات الأسرية بها من تغول المال وشراسة تأثيره(٣٢).

ثانياً: السعي لاقتناء المال والتكالب عليه:

في ظل هذه القيمة المتعاظمة للمال والتوجهات المجتمعية المصاحبة له، شهد المجتمع العباسي سعيًا محمومًا من أجل اكتسابه واقتنائه بكل الطرق والوسائل المشروعة منها ما أمكنهم، وإلا ففي غيرها كانت متسعًا لهم، ولسان حالهم قول شاعر عصرهم أبي نواس إذ قال:

سَأَبْغِي الْغِنى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ يُقِيمُ سَواءٌ أَوْ مُخِيفَ سَبِيلِ(٣٣)

ورصد الجاحظ بدقة ملاحظته هذا التيار الاجتماعي الجارف، فقال: " وجعل الناس يتكالبون على المال، ويتوسلون إليه بشتى الوسائل، لا يعفون عن محرم، ولا يتورعون عن خبيث، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعاني الكريمة أسبابًا يخادعون بها، حرصًا عليه وإجلالاً له"، ويواصل شهادته على أهل عصره، فيقول أيضًا: " إن المال محروص عليه ومطلوب في قعر البحار، وفي رؤوس الجبال، وفي دغل الغياض، ومطلوب في الوعرة، كما يطلب في السهولة، وسواء فيه بطون الأودية، وظهور الطرق، ومشارق الأرض ومغاربها، فطُلبت الأموال بالعز وطُلبت بالذل، وطُلبت بالوفاء وطُلبت بالغدر، وطُلبت بالنسك، كما طُلبت بالفتك، وطُلبت بالصدق وطُلبت بالكذب، وطُلبت بالنداء، وطلب بالملق، فلم يترك فيها حيلة ولا رقية حتى طُلبت بالكفر بالله، كما طُلبت بالإيمان، وطُلبت بالسخف كما طُلبت بالنبل، فقد نصبوا الأفخاخ بكل موضع ونصبوا الشرك في كل ربع "(٣٤).

ولعله من باب التأكيد أن نسوق شهادة لأحد شهود العيان ويُدعى خالد بن يزيد وكان من أثرياء هذا العصر، إذ قال لابنه: "إني قد لابست السلاطين والمساكين، وخدمت الخلفاء والمكدين، وخالطت النساك والفتاك، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر، وحلبت الدهر أشطره وصادفت دهرًا كثير الأعاجيب، فلولا أني دخلت من كل باب وجريت مع كل ريح، وعرفت السراء والضراء حتى مثلت لي التجارب عواقب الأمور، وقربتني من غوامض التدبير، لما أمكني جمع ما أخلفه لك ولا حفظ ما حبسته عليك"[٣٥].

هكذا كان المجتمع بأسره بكل طبقاته وطوائفه وفئاته يسعى سعيًا محمومًا من أجل اكتساب المال الوفير وجمعه، ليس للوفاء باحتياجات ومتطلبات العصر الذي كان يجنح نحو الترف المبالغ فيه والرفاهية التي لا حدود لها فحسب[٣٦]، وإنما كان أيضًا لإشباع تلك الفطرة النهمة والغريزة التي لا تشبع من اقتناء المزيد منه، وعبر ابن الجوزي عن هذه الشهوة على لسان أحد أبطال مقاماته، فقال: "غلب على قلبي حب المال أجمعه، فالمال بالطبع محبوب وأن تحصيل ذاته لذاته مطلوب "[٣٧].

ثالثاً: البخل وفلسفته (مذهب أهل الجمع والمنع):

أسفر تعاظم قيمة المال، والسعي الدؤوب لاكتسابه واقتنائه بكل الطرق، عن ظهور تيار جديد أخذ في الانتشار، وهو اكتناز المال وتخزينه والاقتصاد في إنفاقه، والحرص عليه حرصهم على الحياة، وأصبح البخل به وتعطيله عن الدوران والاستثمار فيه مذهبًا استشرى بين كثير من أصحاب الأموال، جمع بينهم وألف قلوبهم، وأصبح محورًا لرابطة قوية كان لها ثقلها في المجتمع العباسي أطلق على أعضائها (أهل الجمع والمنع)، صاغوا للبخل فلسفة وسعوا لترويجها ونشرها في المجتمع، واتخذوا لأنصارها مقرات، كان مسجد البصرة أشهرها، يقول الجاحظ وكان أحد شهود العيان عليهم: "اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا

المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، والحلف الذي يجمع على التناصر، وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماسًا للفائدة واستمتاعًا بذكره"[٣٨].

ولا شك أن هذا التيار كان من القوة والتمكين في المجتمع[٣٩] بحيث فرض نفسه على الجاحظ، فخصص كتابه الأشهر والمعنون باسم "البخلاء" للحديث عن أصحاب هذا المذهب، رصد فيه أقوالهم ونصائحهم، واستعرض فيه تفاصيل فلسفتهم وتفشي فكرهم في المجتمع، فكان مما قاله: "فما زال الناس يحفظون أموالهم عن مواقع السرف ويجتنبونها وجوه التبذير" وعندما سُئل أحدهم عن الكرم والجود قال: "دعني مما لا نراه إلا في الأشعار المتكلفة والأخبار المولدة والكتب الموضوعة، فقد قال أهل زماننا ذهبت المكارم إلا من الكتب" وهو بذلك يقرر تفشي تيار البخل على حساب قيم الجود والكرم في المجتمع[٤٠].

كان لهؤلاء البخلاء مفاهيمهم الخاصة لتبرير سلوكهم وتزيين مسلكهم، فأطلقوا على البخل إصلاحًا، والشح اقتصادًا، والمنع حزمًا، والكرم تضييعًا، والجود إسرافًا وفسوقًا، والتوسع ضلالة، والإيثار جهلاً، والسخاء من همزات الشياطين، ومواساة الرجل للرجل من الذنوب الموبقة وأفضاله عليه من الكبائر"، وقال في ذلك أحدهم مفتخرًا: "بخلت وبعض البخل حزم وقوة "[٤١]. وقال آخر: "البخل فطنة"[٤٢].

أما عن فلسفتهم، فهي تنبع من اعتقادهم الراسخ أن المال هو الملاذ الآمن الذي يحميهم من الأخطار والمخاوف التي تهددهم، فالمال هو القوة المطلقة التي تحقق لهم السلامة والأمان. وإنفاقه يمثل ضعفًا وذلاً، وإفسادًا للدين والدنيا، وفي ذلك جاء على لسان أحدهم: "واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير، ولا تثمير معه لقليل، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين، وتأدب بما أدب الله به نبيه فقال: " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا"[٤٣]، و"لا تجاود الله، فإنه أجود وأمجد، ولو شاء الله أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون فقيرًا لفعل"[٤٤]. وهكذا فقد رأوا أن إمساكهم عن الإنفاق إنما هو بدافع تقوى

الله والتزام أوامره، وادعوا أن التبذير وسعة الإنفاق من أعظم ما ارتكبته الأمم البائدة من جرائم فاستحقوا بسببها غضب الله عليهم وعذابه[٤٥].

ألقى هذا الاتجاه نحو اكتناز المال والتقتير في إنفاقه من قبل الكثير من الاثرياء وأصحاب الأموال بظلاله الكئيبة على المجتمع؛ فضعفت حركة تداول الأموال، وتعطلت عن الدوران، وضعف الاستثمار، وانخفضت القوة الشرائية لهذه الفئات الغنية، الأمر الذي انعكس سلبًا على الإنتاج واستجادة الصناعات، وضعفت حركة البناء والعمران. وامتد تأثيرها إلى الشعراء والأدباء والوكلاء فكسدت بضائعهم وأُغلقت أسواقهم، وقلت أرزاقهم، بعد أن أغلق هؤلاء الأغنياء أبوابهم في وجوههم، حفاظًا على أموالهم، وقد اعترف أحدهم بذلك، فقال: "إني لم أحمد نفسي على جمع المال، كما حمدتها على حفظه، فقد حفظته من فتنة البناء، ومن فتنة النساء، ومن فتنة الثناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العياء"[٤٦].

كان للطبقة الدنيا وأصحاب الدخول المتواضعة النصيب الأوفى من هذه الآثار السلبية، فقد حرموا من موارد كانت معينًا لهم على العيش، ليس هذا فحسب بل كان الأنكى والأسوأ ما تبناه أصحاب هذا الاتجاه في خطابهم المعُلن من مشاعر عدائية واستفزازية تقطر عداوة وكراهية ضد هذه الفئات الدنيا[٤٧]، وسعيهم الدائم لتحريض المجتمع ضدهم والتحذير منهم والنهي عن برهم والإحسان إليهم، مثل قولهم: "لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم"، و"لا تجاودوا الله فإن الله أجود منكم"، وغيرها مما يضيق المجال عن سردها، ولم يكتفوا في عدائهم عند هذا الحد، بل سعوا لتحريض الدولة وصانعي القرار ضدهم، فيذكر الجاحظ أن أحد رموز هذا التيار ويُدعى سهل بن هارون كتب كتابًا في مدح البخل وأهله، أهداه إلى الحسن بن سهل وزير الخليفة المأمون، فلم يلق قبولاً عنده وأعاده إليه بعد أن وقع على ظهره " قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه"[٤٨].

غير أن هذه المواقف الرسمية والفردية لم تحل دون انتشار هذا التيار ليزيد من احتقان أفراد المجتمع لا سيما الفئات الدنيا منه ضد الأثرياء من أصحاب الجمع والمنع، الأمر الذي كان ينذر بنشوب صراعات اجتماعية تركت آثارًا عميقة في المجتمع، تجلت في شيوع روح الحقد والحسد والكراهية نحو أصحاب الثروات والأموال، فشاع الدعاء عليهم بالنكبة والمصادرة وعظائم الأمور[٤٩]. ولعل من أبلغ ما ذُكر في هذا المقام ما حدث مع تاجر الجوهر الشهير ابن الجصاص عندما رأه حاجب الوزير ابن الفرات (وزير المقتدر) يومًا فقال: "أي بيت مال يمشي على الأرض، ألفا ألفا دينار تمشي وليس لها من يأخذها!"[٥٠]، حسدًا منه ودعاءً عليه، وكذلك عندما خرج من عنده يومًا أحد أصحابه، فتلقاه أديب البصرة وشاعرها أبو العيناء – وكان كفيفًا (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) فسأله عن حاله، فوصف له ما رآه عنده من نوادر الجوهر واليواقيت وتلال الذهب حتى إنه رآه يزن سبائك الذهب بقبان كما يوزن الحطب، عندئذ رفع الشاعر رأسه إلى السماء، وقال: " اللهم إنك لم تساو بيني وبينه في الغنى، فساو اللهم بينه وبيني في العمى، ثم اندفع يبكي "[٥١].

رابعاً: الأغنياء وجرائم المال:

ألقى هذا التيار المادي الساعي نحو المال وكسبه واكتنازه، بآثاره السلبية على المجتمع وأخلاقه، فشهد انحسار كثير من القيم والتي جسدتها الجرائم المتعلقة بالمال، والتي احتلت مكانة الصدارة فيما كان يُعرض على القضاة وفي ساحات العدالة، وقد حفظت كتب القضاء وأخبار القضاة أمثلة لا تُحصى منها[٥٢]. كما ارتفعت صيحات العلماء ورجال الدين بالتنديد بها والتحذير من مغبتها دينًا ودنيا، والتخويف من انعكاساتها السلبية على المجتمع وأهله، وكان في مقدمة هذه الجرائم:

أ) منع الزكاة والصدقات ومشاركة الفقراء في مخصصاتهم:

لم يقتصر الأمر عند حد الضن بالصدقات، والبخل بأعمال البر والإحسان،

بل تعداها إلى الزكاة المفروضة والتي هي حق معلوم للفقير والمحروم، يصف ابن الجوزي هذا الأمر، فيقول: "وقد لبس إبليس على أصحاب الأموال من جهة البخل بها، فمنهم من لا يخرج الزكاة أصلاً اتكالاً على العفو، ومنهم من يخرج بعضها ثم يغلبه البخل فيكتفي بما أخرج منها، ومنهم من يحتال لإسقاطها مثل أن يهب المال قبل الحول، ثم يسترده، ومنهم من يحتال بإعطاء الفقير ثوبًا يقومه عليه بعشرة دنانير وهو يساوي دينارين، ومنهم من يخرج الرديء مكان الجيد، ومنهم من يعطي الزكاة لمن يستخدمه طول السنة فهي على الحقيقة أجره، ومنهم من يخرج الزكاة كما ينبغي، فيقول له إبليس ما بقى عليك شيء، فيمنعه أن يتنفل بصدقة حبًا للمال فيفوته أجر المتصدقين"، ومنهم من يخرج الصدقات ويعمل الإحسان والناس يرونه، فيجمع بين الرياء والسمعة وبقاء الذكر وإذلال الفقير"[٥٣]. ولا شك أن كثرة شيوع نهي وتحذير وتخويف العلماء والفقهاء والقضاة من هذه الممارسات إنما يدل على شيوعها واستفحال آثارها السلبية، وكذلك يندر أن تجد كتابًا في الأحكام الشرعية يرجع إلى هذه الفترة التاريخية يخلو من هذه التحذيرات "[٥٤].

وفضلاً عن ذلك، رصد علماء وفقهاء هذا العصر ممارسات أخرى لبعض الأغنياء والقادرين على الكسب ساعدت على تكريس الفقر وكثرة الفقراء، وذلك بمزاحمتهم للحصول على مخصصاتهم، وما رصده المجتمع لهم من صدقات ومرافق وخدمات، ومن ذلك ما رصده ابن الجوزي، فقال: " ومنهم من ادعى التصوف والزهد، ومنهم من أظهر الفقر مع جمعه للمال، وأكثر هؤلاء وشيوخهم يضيقون على الفقراء بأخذهم الزكاة ولا يجوز لهم ذلك ". وقد ذخرت المصادر التاريخية بأمثال هؤلاء ممن دأبوا على لبس الصوف صيفًا وشتاءً ويقصدهم الناس للتبرك بهم، وقد انعزلوا في الأربطة والمساجد، فلما ماتوا فضحتهم تركاتهم وما خلفوه من ثروات وأموال وعقار[٥٥]، ولعل هؤلاء هم من قصدهم الجاحظ فيما استشهد به من شعر فقال:

نَرْقَــعُ دُنْيَانَــا بِتَمْزِيــقِ دِينِنَــا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نَرْقَعُ[٥٦]

ب) الربا والاحتكار وجحد الودائع والأمانات:

من جرائم الأغنياء المتعلقة بالمال، شيوع المعاملات الربوية والتساهل فيها، وقد أعلنها ابن الجوزي فقال: "قد فشا الربا في أكثر معاملاتهم وآنسوه حتى إن جمهور معاملاتهم خارجة عن الدين"(٥٧). هذا فضلاً عن احتكارهم للسلع وتلاعبهم بالأسعار دون أدنى مسؤولية تجاه الناس والمجتمع(٥٨). وعندما نرصد حيلهم ومكائدهم في جحد الأموال والودائع والأمانات التي استودعها إياهم الفقراء والأيتام والضعفاء، ومن اضطرته الظروف لذلك، فسرقوها ومنعوها عن أصحابها وأهلها، فإنك تقف على ما لم يستطع عليه إبليس حيلة –علي حد تعبيرهم– وقد امتلأت ساحات القضاة بمثل هذه الجرائم فنصب بعضهم أنفسهم للتصدي لها ورد الحقوق لذويها، وذخرت المصادر التاريخية والأدبيات التراثية بكم هائل من هذه القضايا لتكشف عن ممارسات الأغنياء لقهر الفقراء والضعفاء(٥٩).

كذلك الأوقاف والصدقات المخصصة للفقراء والضعفاء حتى أموال اليتامى لم تسلم منهم، فامتدت أيديهم للاستيلاء عليها، الأمر الذي كان يُعد مصدر قلق للخلافة حتى في ذروة قوتها، فتصدت للإشراف عليهم والنظر في سجلاتهم واستخراج ما في أيديهم مما أخذوه بقوتهم وجاههم من حقوق الناس(٦٠). ولكن مع ضعف الدولة وانشغالها بصراعاتها عن مصالح رعيتها أطلقت أيديهم فيها حتى كانوا لا يلقبون إلا "بأكلة أموال اليتامى"(٦١).

كان لهذه الممارسات وغيرها أثارٌ بعيدة المدى على كثير من فئات المجتمع خاصة الدنيا منها، الذين استشعروا عداوة أصحاب الأموال والثروات لهم، إذ أفقروهم، وسعوا لتكريس فقرهم وحرموهم من حقوقهم وزاحموهم في مخصصاتهم، وقاموا بتهميشهم وتسلطوا عليهم فاحتقروهم واستصغروا شأنهم، فلم يتركوا لهم فضيلة إلا ونفوها عنهم ولا رزيلة إلا وألصقوها بهم، وقد نضح خطابهم المتعالي إزاءهم بالتجبر والعداوة والكراهية والقسوة.

وفي غمرة تجبرهم ببريق الذهب والمال، غفلوا عن قوة أعدائهم وقدراتهم وخبراتهم التي اكتسبوها عبر أجيال طويلة في مقاومة القهر ودفع الظلم وانتزاع

الحقوق والانتقام ممن ساموهم العذاب، فهب هؤلاء الضعفاء ليقودوا صراعًا عنيفًا ضد الأغنياء وأصحاب الأموال، فنصبوا لهم شبكة الخداع ونسجوا حولهم مصائد الحيل، وشهروا الاحتيال سلاحًا في وجوههم، استطاعوا به انتزاع أموالهم واسترداد حقوقهم وكسب أرزاقهم، وردوا به الصفعة إلى أعدائهم استخفافًا واستهزاءً ومهانة.

خامساً: الأوضاع العامة للدولة وتفشي فكر الاحتيال:

فإذا ما تجاوزنا المحيط الاجتماعي بكل ما يكتنفه من صراعات طبقية مُعلنة وغير مُعلنة –على نحو ما فصلنا – إلى المحيط الأوسع على مستوى الدولة، فإنه منذ بدايات القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي شهد تطورات سياسية كان لها أبلغ الأثر في تأجج هذا الصراع وفورانه، وذلك إثر قرار الخليفة المعتصم بإسقاط العرب من ديوان العطاء واستبعادهم من الخدمة العسكرية، ليحل محلهم العنصر التركي، ومع حرمان العرب من العطاء وإقصائهم عن مكانة الصدارة في المجتمع وإجبارهم للنزول للحياة العامة سعيًا في طلب المعاش والعمل بالزراعة والصناعة والتجارة[٦٢]. ومع الأخذ في الاعتبار طبيعة العربي في أنفته واستنكافه للأعمال اليدوية[٦٣]. الأمر الذي أشعل الغضب والسخط في قطاع كبير منهم ضد مجتمعهم وضد عصرهم الذي شهد انحسار مجدهم، وفوات رزقهم، وتقلب حظوظهم، فتوقف بعضهم ممن كانت لهم ملكاتهم وتوجهاتهم الخاصة – على نحو ما سنرى – عن الكسب بالوجوه الطبيعية، ولجأوا إلى الاحتيال وسيلة للارتزاق والمعاش من ناحية[٦٤]، وللتنفيس عن رغبتهم في الانتقام من مجتمعهم من ناحية أخرى، بما لا يعرضه للعداوة الصريحة أو الوقوع تحت طائلة العقاب.

وفضلاً عما سبق، فقد شهد هذا العصر تضافر العديد من العوامل الداعمة لفكر الاحتيال وشيوع فلسفته في المجتمع. فالدولة في سعيها المحموم لجمع الأموال وسد العجز في ميزانيتها وتلبية أطماع جندها المرتزقة ودفع رواتبهم، لجأت إلى التحايل في جباية الأموال من رعيتها واستنزافهم تحت مسميات

مختلفة، منها: المصادرات الفادحة والمواريث الحشرية، واغتصاب أموال وأملاك المغضوب عليهم من الرعية، وحل الأوقاف ووضع يدها على أموالها، وأموال اليتامى، ومع تفاقم ضعف الخلفاء وانصرافهم عن النظر في مصالح رعيتهم، كثر تحايل الوزراء والولاة والعمال وتعديهم على أموال الناس، في الوقت الذي تحايلوا فيه لنهب أموال الدولة وسرقة مقدراتها، يُحكى أن أحد المخالطين للوزير ابن الفرات قال له يومًا، وقد اطلع على عظم ماله ومكتنزاته: "ما رأيت أجرأ من مولاي على أخذ أموال السلطان"، ويعدد الصابئ في "تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء" أمثلة لا تحصى من اجتراء العمال وتحايلهم على نهب المال العام واختلاسه، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء المختلسون يحتالون لإخفاء أموالهم بكل السبل، فمنهم من كان يخفيها في كنيف داره، ومنهم من كان يخفيها في القبور "[٦٥].

وفي الجهاز الإداري، كان التحايل عنوانًا لكافة معاملاته، وذلك من خلال شيوع الرشوة والمحسوبية، وبيع الوظائف لمن يدفع أكثر وفي حسبانه استرداد أكثر مما دفعه من الناس، وغيرها من معاملات كثيرة، ولكنها تنطوي كلها على أشكال متعددة من التحايل لاستنزاف الرعايا وإرهاقهم، والطمع في أموالهم، ونكتفي في هذا الصدد باعتراف نادر وشهادة دامغة على هذا العصر قدمها الوزير ابن الفرات في لحظة صدق مع نفسه عندما شارف على الهلاك، إذ قال: " عددت مع نفسي ما عاملت به الناس، فوجدتني قد عملت كل شيء من مصادرة ونهب، وقبض ضياع وحبس وتقييد وتضييق وإلباس جباب الصوف، وتسليم قوم إلى أعدائهم وتمكينهم من مكروهم " تحايلاً على أخذ أموال الناس[٦٦]. هكذا رأى الناس ملوكهم وحكامهم وأولي الأمر فيهم، وقديمًا قيل الناس على دين ملوكهم.

أما على المستوى الأمني، فقد شهد تراجعًا كبيرًا أمام عجز الدولة وتردي أدائها، فكثر الفساق واللصوص، وامتدت أيديهم ليس إلى أملاك الناس وأموالهم فحسب، بل إلى أولادهم ونسائهم، يقول الطبري: "إن الفساق والشطار الذين كانوا

ببغداد والكرخ أذوا الناس أذى شديدًا وأظهروا الفسق وقطع الطرق، وأخذوا النساء والغلمان علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من مال ومتاع وغير ذلك، فلا سلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم؛ لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه". هكذا بلغت الدولة العباسية من الضعف إلى حد مهادنتها للصوص ودفع مرتبات شهرية مجزية لزعمائهم[٦٧]. وأصبحت أموال الناس مباحة للحكام واللصوص معًا، الأمر الذي فتح الباب أمام المحتالين لأن يدلوا بدلوهم ويشاركوا بدورهم في أعمال النهب، ولكن بطريقتهم.

أما على المستوى الديني والثقافي، فقد كانت الأمور أكثر عمقًا وتعقيدًا، إذ وقف بعض رجال الدين على أبواب الحكام والأثرياء وأصحاب الأموال يبيعون لهم الفتاوى الدينية بأبخس الأثمان، لا يتورعون عن التحايل في تفسير كتاب الله وأحاديث رسوله وفق أهوائهم ومصالحهم، ولعل ما ذخرت به المكتبة التاريخية الإسلامية من كتب ومصنفات كثيرة عن الحيل والمخارج الباطلة والتنبيه إليها والتحذير منها وإبطال أحكامها لدلالة بالغة على تفشي فكر التحايل حتى في الأمور الشرعية[٦٨]. وأصبح الدين متجرًا للناس، تحايل به بعض القضاة ورجال الدين والفقهاء للوصول إلى مقاصدهم الدنيوية من مال وجاه[٦٩]. حتى كثير من الشعراء والأدباء والخطباء باعوا أقلامهم وألسنتهم لمن يدفع لهم، محتالين عليهم ببلاغتهم وسحر بيانهم لسلب أموالهم. وأخيرًا يضيف ابن خلدون سببًا آخر له وجاهته من أسباب تفشي أعمال الاحتيال في المجتمع العباسي وهو إفراط الحضارة والترف والانهماك في الشهوات، وما يتبعها (من تحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، واستجماع الحيلة له بالمكر والخديعة وبشتى طرق الفسق ومذاهبه)[٧٠].

هكذا وجد الناس انفسهم في محيط ينتشر فكر التحايل في جميع جنباته،

ويُمارس على كافة المستويات وعلى كافة الأصعدة.

في خضم هذا الجو المشحون بالمظالم الاجتماعية، والصراعات الطبقية، وتفشي فكر التحايل والاحتيال في المجتمع – على نحو ما رأينا – جاءت بعض الآيات القرآنية في جواز الانتقام من المعتدين وكذلك حديث النبي ﷺ "الحرب خدعة"(٧١). ليكونا البابين اللذين دلفت منهما كثير من الفئات الشعبية إلى عالم الحيلة والاحتيال ، وفقًا لرؤيتهم ومستوى وعيهم وثقافاتهم، إذ نظروا لحياتهم على أنها معركة لاكتساب الرزق وتحقيق الذات، وبالتالي فلا مانع من استعمال الحيل والخداع ونصب الشباك لأصحاب الأموال لسلب وانتزاع حقوقهم التي فرضها الله لهم في أموالهم، والانتقام منهم ورد الصفعة لهم، ومقاومة تسلطهم وقهرهم(٧٢)، والتكيف مع واقعهم ومسايرة روح عصرهم الذي غلب عليه فكر الاحتيال(٧٣). ولعل هذا يفسر نظرة المجتمع لكثير من الطرق الاحتيالية، فلم يعتبرها عملاً غير شريف أو أنها منافية للأخلاق، بقدر ما هي عمل من أعمال المهارة والذكاء والدهاء(٧٤). والتي كثيرًا ما كانت تثير إعجاب الناس، فتناقلتها ألسنتهم ورصدها كثير من أدبائهم في مصنفاتهم كوسيلة للتشفي من أعدائهم.

وأخيرًا فإنه إذ كان للمجتمع الدور الرئيسي في خلق هذه الفئة من المحتالين كرد فعل لما ساده من تيارات وتوجهات وصراعات على نحو ما رأينا، فإن الدراسة لم تغفل في هذا الصدد دور السمات الذاتية والمقومات الشخصية والعقلية والنفسية والملكات الذهنية والثقافية التي دفعتهم لهذا الاتجاه ومكنتهم من الإبداع فيه.

- **الانتماءات الطبقية لجماعات المحتالين:**

كانت معظم فئات المحتالين تنتمي إلى طبقة العوام بطبيعة الحال أو ما عرفوا بدهماء الناس وجمهورهم، ولكن مع تطور الأحداث –على نحو ما فصلنا – سرعان ما انضمت إليهم دماء جديدة من الطبقة الأعلى والمعروفة بأوساط الناس، وكان الجاحظ بدقة ملاحظته ممن لفت النظر إلى هذا التطور الاجتماعي الخطير، فقال: " إن التربح والتكسب والاستئكال بالخديعة والطعم

الخبيثة، فاشية غالبة، مستفيضة ظاهرة، على أن كثيرًا ممن يضاف اليوم إلى النزاهة والتكرم وإلى الصيانة والتوقي ليأخذ بذلك بنصيب وافر وبمد واف، فما ظنك بدهماء الناس وجمهورهم "[٧٥].

فلسفة الاحتيال:

ارتكزت فلسفة الاحتيال حول محورين أساسيين، هما المال والانتقام، أما بالنسبة لأولهما وهو المال، فقد آمن المحتالون بعدالة الله في أرضه، وعدالة توزيع فضله ورزقه بين عباده، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٧٦]، وقال أيضًا عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٧٧]. فكل الخيرات والطيبات سخرها الله لجميع خلقه للانتفاع بها، ويأتي المال في مقدمة هذه النعم. فهو في الأساس مال الله لعباد الله، الأصل فيه أن ينعم به الجميع، لذلك فقد حدد سبحانه للجميع حقوقهم فيه ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[٧٩]، وقال كذلك عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[٨٠]، فلما خرج بعض اصحاب الأموال عن النواميس الشرعية، واستحوذوا عليها لأنفسهم، وتطاولوا بها على من دونهم، واحتالوا في منعهم من حقهم فيها والانتفاع بها[٨١]، الأمر الذي استوجب على هؤلاء المحرومين منها مواجهتهم بنفس أدواتهم وسلاحهم، فاحتالوا عليهم لانتزاع حقوقهم[٨٢]، وكما خدعوهم فليعاملونهم بالخديعة، وعبر عن ذلك أحدهم، فقال:

عِشْ بالخِداعِ فأنتَ في ... دهْرٍ بَنوهُ كأسْدِ بِيشَة
وأدِرْ قَناةَ المَكْرِ حتى ... تسْتَديرَ رَحى المَعيشَة
وصِدِ النّسورَ فإنْ تعذرَ ... صيدُها فاقْنَعْ بريشَة
واجْنِ الثّمارَ فإنْ تَفُتْك ... فرَضّ نفسَكَ بالحشيشَة
وأرِحْ فؤادَكَ إنْ نَبا ... دهْرٌ منَ الفِكَرِ المُطيشَة
فتغايُرُ الأحْداثِ يؤذِنُ ... باستِحالَةِ كُلّ عيشَة [٨٣]

ولعل هذا يفسر رؤيتهم لأنفسهم، فهم يرون أنهم شرفاء وأن ما يقومون به ليس اعتداء على حقوق الغير ولا يتنافى مع الأخلاق، بل هو شكل من أشكال التكيف مع الواقع ومسايرته.

سَـــخِفَ الزَّمـــانُ وَأُهِلُّـــهُ فَرُكبت مِنْ سخفي مَطِيَّةَ[٨٤]

ومن هذا المنطلق فهم لا يقبلون لومًا ولا عتابًا:

وَأَخُـــو الْعَيْلَـــةَ الْمَعِيـــلَ إِذَا اِحْتَـــالَ لَـــمْ يُلِـــمْ[٨٥]

ويقول آخر:

الـــذَّنْبُ لِلْأَيَّـــامِ لَا لِـــي فَاعْتِبْ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي
بِالْحِيلَـــةِ ادْرِكـــت الْمُنَـــى وَرَفَلْت فِي حُلَلِ الْجَمَالِ [٨٦]

أما المحور الثاني من محاور فلسفة الاحتيال، فهو الانتقام من المجتمع خاصة الأغنياء ممن استولوا على مقدرات البلاد، وسعوا لتكريس فقرهم وقهرهم وتهميشهم ومنع الخير عنهم، والتحذير من مد يد العون لهم[٨٧]. هذا في الوقت الذي سحبت فيه الدولة مظلة حمايتها لهم منشغلة بصراعاتها مع الجند المرتزقة فُرسًا تارة وتُركًا تارة أخرى، فتركتهم فريسة للطامعين ونهبًا للفاسدين، فكان لا بد لهم من مواجهتهم والانتقام منهم بسلب أموالهم التي بها طغوا عليهم[٨٨]، وما يتبعه ذلك من حسرة قلوبهم وإراقة ماء وجوههم، والسخرية من غبائهم وضعف عقولهم وقلة حيلتهم وفضح أطماعهم ولؤمهم ونقائصهم[٨٩]. وقد عبر أحدهم ببليغ قوله وفصاحة لسانه عن كل هذه المكنونات النفسية وما تمثله من صراعات اجتماعية، فقال:

يـــا صـــارِفاً عنّـــي المـــودّةَ والزّمـــانَ لـــهُ صُـــروفْ
وَمُعَنِّفِـــي فِـــي فَضْـــحِ مَـــنْ جـــاورت تعنيـــف العســـوف
لا تلمنـــي فيمـــا أتيـــت فَـــإِنَّنِي بِهِـــمُ عَـــرُوفْ

وَلَقَـــدْ نَزَلْـــتُ بِهِـــمْ فَلَـــمْ أرهـــم يراعـــون الضـــيوف
وبلَـــــوْتُهُمْ فوجـــــدْتُهُمْ لمّـــا ســـبَكْتُهُمُ زُيـــوفْ
مـــا فـــيهِمِ إلا مُخيـــفٌ إنْ تمكّـــنَ أو مَخـــوفْ
لا بالصّـــفيّ ولا الـــوَفيّ ولا الحَفـــيّ ولا العَطـــوفْ
فوثبْـــتُ فـــيهمْ وثْبَـــة ال ذئبِ الضّريّ علـى الخَروفْ
وتـــركتُهُمْ صـــرْعى كـــأنهمْ سُـــقوا كـــأسَ الحُتـــوفْ
وتحكّمَـــتْ فـــي مـــا اقْتَنَـــوْهُ يَـــدي وهُـــمْ رُغْـــمُ الأنـــوفْ
ثـــمّ انْثَنَيْـــتُ بمَغْـــنَمٍ حُلْـــوِ المَجـــاني والقُطـــوفْ
ولَطالَمـــا خلّفْـــتُ مـــكْ لـــومَ الحشـــى خلْفـــي يطـــوفْ
ووَتَـــــرْتُ أرْبـــــابَ الأرا ئِـــكِ والـــدّرانِكِ والسّـــجوفْ
ولَكَـــمْ بلغْـــتُ بحيلَتـــي مـــا لـــيسَ يُبلَـــغُ بالسّـــيوفْ
ووَقفْـــتُ فـــي هـــوْلٍ تُـــراعُ الأُسْـــدُ فيـــهِ مـــنَ الوقـــوفْ
ولكَـــمْ ســـفكتُ وكـــمْ فتكْـــتُ وكـــمْ هتكْـــتُ حِمـــى أَنـــوفْ
وكَـــمِ ارْتِكـــاضٍ موبِـــقٍ لـــي فـــي الـذّنوبِ وكـم خُفـوفْ
لكنّنـــي أعـــدَدْتُ حُسْـــنَ الظّـــنّ بـــالمَوْلى الـــرّؤوفْ (٩٠)

أما عن استحلالهم لما طالته أيديهم من أموال ذوي الأموال فكان منطقهم: " إن هذا رزقنا ولا بد أن يصل إلينا، وأنه من الله ولا نشكر سواه "(٩١).

صفات المحتال ورؤيته لنفسه:

كان المحتال على عكس غيره من الفئات المهمشة ممن استكانوا لظروفهم، وأذعنوا لقهر ذوي الطول من أغنياء زمانهم، إذ رفعوا شعار التحدي والتصدي، تحدي ظروفهم، والتصدي لمن سعى لقهرهم، وساعدهم على ذلك ما تميزوا به من سمات عقلية وملكات ذهنية، وما حباهم الله به من عزائم وقدرات مكنتهم من سهولة ودقة تنفيذ حيلهم ونصب شبكة خداعهم بلا عنف ولا ضجيج، كان في مقدمتها بطبيعة الحال الذكاء النادر والدهاء الفائق والفطنة وسرعة البديهة وحُسن

التصرف[٩٢]. فضلاً عن الفصاحة وفنون البلاغة، فكان لسان المحتال هو بضاعته التي يسحر بها الألباب، ويلجم به العقول والأذهان ومطيته للوصول إلى أموال الناس[٩٣]. وفي ذلك يقول الجاحظ: " واعلم أن سحرهم يسترق الذهن ويخطف البصر، قال رسول الله ﷺ إن من البيان لسحرًا "[٩٤]. وعن امتلاكهم لنواصي الفصاحة وصف بديع الزمان الهمذاني أحدهم بأنه " رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه "[٩٥]، فانتحلوا الشعر ونظموا المنثور وأتوا في ذلك بالعجائب في سلب لباب الناس.

هذا فضلاً عما تراكم عندهم من خبرات بالحياة والوقوف على طبائع الناس ونفسياتهم وميولهم، والقدرة على النفاذ إلى عقولهم وقلوبهم مستعينين في ذلك بثقافاتهم وإلمامهم بكثير من علوم ومعارف عصرهم، وقد وُصف أحدهم فقيل فيه: "ألفيته يتقلب في قوالب الانتساب، ويخيط في أساليب الاكتساب، فيدعى تارة أنه من آل ساسان (كسرى)، وينتسب مرة إلى أقيال غسان (ملوك الشام)، ويبرز تارة في شعار الشعراء، ويلبس حينا كبر الكبراء، بيد أنه مع تلون حاله وتبين محاله (أي مكره وكذبه) يتجلى برواء وروية ومداراة ودراية وبلاغة رائعة وبديهة مطاوعة، وآداب بارعة وقدم لأعلام العلوم فارعة "[٩٦].

هذا فضلاً عن الحذر الشديد خوفًا من أن يطلع أحدٌ على حقيقتهم، فضلاً عن الجرأة وعدم الخجل التي قد تصل إلى حد الوقاحة، يصف بديع الزمان الهمذاني أحدهم، فيقول: "تأملت فصاحته في وقاحته (أي الجرأة وقلة الحياء)، وملاحته في استماحته (أي في طلب العطاء)، وربطه الناس بحيلته، وأخذه المال بوسيلته"[٩٧]. هذا فضلاً عما أبدوه من قدرة على التلون حسب الظروف والمواقف، وثقة بالنفس وتباهي بقوة شخصيتهم، وفخر بمواهبهم وافتخار ببديع حيلهم وخفي مكرهم، والحرص على انتزاع إعجاب الناس بهم، وربما كان ذلك هروبًا من الصورة الواقعية، وستارًا لما غلب عليهم من عدوانية، وتعويضًا عما عانوه من سخرية. وفي ذلك قال أحدهم:

أَنَـــا يَنْبُـــوعُ العَجَائِـــبْ فِـــي احْتِيَـــالِي ذُو مَرَاتِـــبْ

أَنَـــا فِـــي الحَـــقِّ سَـــنَامٌ أَنَـــا فـــي البَاطِـــلِ غَـــارِبْ
أَغْتَـدِي فِـي الـدَّيْرِ قِسِّيسـاً وَفـــي المَسْـــجِدِ رَاهِـــبْ[٩٨]

وقال آخر:

أَنَـــا أُطْروفَـــةُ الزَّمـــانِ وَأُعْجوبَـــــةُ الْأُمَـــــمِ
وَأَنَـا الْحَـوْلُ الَّـذِي اِحْتَـالَ فِـــي الْعُـــرْبِ وَالْعجـــمِ[٩٩]

كذلك تحلوا بالصبر واتخذوه وقودًا لنضج حيلهم ونصحوا به من سار على دربهم:

لَـــوْلَا الصَّـــبْر مَـــا كُنْـــتُ مَـــلَأْت الْكِـــيسَ تِبْـــرًا
لَـــنْ يَنَـــالَ الْمَجْـــدُ مـــنْ ضَـاقَ بِمَـا تُغْشَـاهُ صَـدْرًا[١٠٠]

وهم في ذلك يبدون حبًّا للسعي والتنقل والتجوال والمغامرة، يجوبون الأمصار ويركبون البحار، ويقطعون القفار، يتسلقون الجبال، ويهبطون الوديان، ويعاشرون الثقلين من الجن والإنس [١٠١]. وهم في كل الأحوال ينتهزون ما سنح لهم من الفرص، ولا يأبون لكثير من القيم خاصة إذا ما تعارضت مع أهدافهم في الكسب والثراء.

وَفَـارَقَ أَبَـاكَ إِذَا مَـا أَبَـاكَ وَمِدْ الشُّبَّاكِ وَصَدٌّ مِنْ سُنَّحِ[١٠٢]

وهم في ذلك أيضًا لا يبدون وخزًا لضمير ولا تراجعًا عن مسلك، ولعل هذا يرجع إلى إيمانهم بعدالة معركتهم وتفاخروا بانتصارهم على أعدائهم، قال في ذلك أحدهم:

لاَ يُبْعِـــــدُ اللهُ مِثْلـــــي وَأَيْـــنَ مثْلِـــي أَيْنَـــا ؟
للهِ غَفْلَـــــةُ قَـــــوْمٍ غَنِمْتُهَـــا بِالْهُوَيْنَـــا !
اكْتَلْـــتُ خَيْـــراً عَلَـــيْهِمْ وَكِلْـتُ لهـم زُوراً وَمَيْنَـا[١٠٣]

وفضلاً عما سبق كانت القدرة على الكذب في مقدمة صفات المحتالين، فالكذب هو جوهر الاحتيال يدعمه البراعة في التمثيل، وهذا ما سنفرده في المبحث التالي بالتفصيل:

البراعة في التمثيل والمهارة في العرض:

إذا كان الكذب هو جوهر الاحتيال، فإن التمثيل كان ظاهره، فعملية الاحتيال كانت بمثابة عرض استعراضي يتوقف نجاحها على براعة المحتال في التمثيل، ومهارته في عرض دوره بكل إثارة وتشويق، فيسلب ألباب الناس قبل أموالهم، ويكسب ثقتهم فيسلمونه أموالهم بكل رضا وترحيب، بل وربما يستعطفونه ويلحون عليه لأخذ أموالهم، والمحتال في ذلك يستعين بأفكار وألفاظ وحركات وإشارات تتناسب مع الشخصية التي يتقمصها، كذلك المظهر الخارجي كان يوليه اهتمامًا كبيرًا خاصة هيئته وملابسه وشعره ورائحته ليقنع الناس بصدقه ويعزز مزاعمه[١٠٤]. والطريف أن بعض المؤرخين انتبهوا إلى هذا الجانب من عقلية المحتال فتناولوها بالوصف والتفصيل. يقول الأبشيهي عن صنف من أصناف المحتالين المعروفين بالمحترفين الموهمين، " وهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس فيلبسون الحرير والبز والمصقول من الثياب، ويكثرون من استعمال الطيب، ويظهرون أنهم من أصحاب الأملاك والأموال والتجارات، فينفقون ببذخ ولا يتحدثون إلا عن أرباحهم الهائلة، ومكاسبهم العظيمة، حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الأحمال الكثيرة من الأموال فتشره نفس صاحب المال لذلك، فيطلب مشاركته في أرباحه ومتاجره "[١٠٥].

وهكذا تعددت أدوارهم فتارة يظهر بزي النساك والزهاد منقطعًا في المساجد مرتديًا الصوف والرقاع[١٠٦]. ومن طريف ما ذكر في هذا الصدد أن أحدهم رفض أن يبيع جبته ذات الرقاع قائلاً: " إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد؟"[١٠٧]، وتارة يلبس ملابس الفقراء المعدمين، وفي ذلك يصف الحريري أحدهم، فيقول: " وهو في ذلك سريع التلون، فتارة يلبس شملة فقير، وتارة يلبس

لبوس الرهبان، وبيده سبحة النسوان"[١٠٨]. وتارة يلبس ملابس المهرجين المضحكين أو الجنود المأسورين أو أبناء سبيل مغتربين، ومع الملابس كانوا يستعينون بأدوات لاستكمال هيئتهم وإحكام أكاذيبهم كأوراق مزورة تثبت غربتهم وانقطاعهم عن أهلهم، أو أحجبة يدَّعون بأن بها أدعية مأثورة عن النبي ﷺ، حتى إنهم كانوا لا يتورعون عن اصطحاب القرود والكلاب لاستدراج الفرائس إلى الأفخاخ وتدعيم ما يروجونه من أكاذيب[١٠٩].

بلغ من حرصهم على إتقان التمثيل أن لجأ بعضهم إلى تعلم اللغات المختلفة، يقول الجاحظ: " ومنهم من قد تعلم لغة الخرسانية واليمانية والإفريقية، وتعرف تلك المدن والرجال، وهو متى شاء كان إفريقيًّا، ومتى شاء كان من أهل فرغانة، ومتى شاء كان من أي مخاليف اليمن شاء "[١١٠] واتقنوا ادعاء العاهات وتمثيل دور أصحابها خاصة العمى[١١١] والعرج، ولعل من أطرف ما قاله أحدهم في ذلك:

تعارجت لَا رَغْبَةً فِي الْعَرَجِ ... وَلَكِنَّ لِأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجِ
وَأُلْقِي حَبْلَي عَلَى غَارِبِي ... وَأَسْأَلُكَ مَسْأَلَكً مَنْ قَدْ مَرَج
فَإِنّ لَامَنِي الْقَوْمَ قُلْت اُعْذُرُوا ... فَلَيْسَ عَلَى أعْرَجِ مِنْ حَرَجِ[١١٢]

وقد أفاض أدباء هذا الزمان وعلى رأسهم الجاحظ ومن جاء بعده كبديع الزمان الهمذاني والحريري في وصف هذه العروض التمثيلية للمحتالين، سواء كانت عروضًا فردية أو عروضًا جماعية[١١٣]، وتوالت التحذيرات من الانخداع بهم وبهيئتهم، يقول الجاحظ في ذلك: " لا تنظر إلى بزة أحدهم، فإن المسكين أقنع منه، ولا تنظر إلى مركبه فإن السائل أعف منه، واعلم أنه مخادع وإن كان في ثياب جياد، وروحه روح نذل وإن كان في جرم ملك "[١١٤].

المحتالون: أصنافهم وأشهر حيلهم:

تعددت أصناف المحتالين، وتنوعت حيلهم تنوعًا كبيرا، ذلك لأنهم كانوا يخلقون لكل فرصة حيلتها حسب مقتضى أحوالها وظروفها، وساعد على ذلك

تطور النظم الاقتصادية وازدهار التجارات عابرة البحار والمحيطات، خاصة تلك القادمة من بلاد الهند والصين والروم، وما أسفر عنها من انتعاش الأسواق والمتاجر، وتطور النظم المصرفية، وما صاحب ذلك من ثراء اجتماعي وانفتاح المجتمع وتشابك العلاقات بين أفراده[١١٥]، وشيوع روح الترف والرفاهية مما دفع الكثير من أصحاب الأموال للطمع في المزيد منها لمواكبة عصرهم[١١٦]. الأمر الذي هيأ جوًّا ملائمًا لأصناف المحتالين، وكان منهم:

المطمعون:

المطمعون هم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام وقضاء حوائجهم حتى يألفوهم ويأنسوا إليهم، ويوعزوا إليهم أنهم من أصحاب التجارات والمكاسب والأرباح، ويظهرون في ثوب الناصحين المشفقين عليهم من كثرة المؤن والنفقات مما قد يستنفذ رؤوس أموالهم، ويغرونهم بالمتاجرة معهم طمعًا في المكاسب والأرباح، فإذا ما وقع المحذور وعرض صاحب الأموال عليهم مشاركتهم في تجاراتهم، ازدادوا تمنعًا حتى يقبلوا مشاركتهم، ولكسب ثقتهم ودرء أي شكوك حولهم، كان بعضهم يشترط أن لا يأخذ المال بيده، بل يكون تحت يد صاحبه أو أحد من جهته، وهنا يكون مآل صاحب المال على حالتين، فإن كان قد ائتمنه وجعل المال بيده، أعطاه المحتال اليسير من المال على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة اليسير من ماله، ثم يدعي الخسارة محتجًّا بآفات وأزمات مختلفة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه (أي استقبله بالقبيح قولاً وفعلاً) وأساء الأدب معه، وبرطل من جملة المال صاحب جاه، فيدفعه إليه ويقول: هذا رباني، فإن خاف صاحب المال وآثر السلامة وُفق بينهما على أن يكتب المحتال على نفسه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفى ما فيها إلا في الآخرة.

أما إذا لم يأتمنه صاحب المال، وحرص على أن يكون المال في يده، والمتاع والبضائع في مخازنه، سلط المحتال عليه البائعين والمشترين يتلاعبون في الأسعار، زيادة إذا اشترى بخسًا إذا باع، محتفظًا لنفسه بما يمكن أن يحصل

عليه من أموال ومكاسب، فإن اشتكى صاحب المال من ضعف أرباحه، أوهمه بقلة خبرته، وأن مفاتيح الأرزاق بيد أصحاب الخبرات، وإن كسد صاحب المال وخسر ماله وبضاعته، أحال الأمر على الأقدار واحتج عليه بعدم علمه للغيب(١١٧).

المحترفون الموهمون:

هم يشبهون المطمعون في حيلهم ويغرون أصحاب الأموال بمشاركتهم حتى إذا تسلموا أموالهم فيكون حالهم كحال المطمع إذا صار المال تحت يده(١١٨).

المفلسون:

المفلسون هم كسابقيهم يدعون الغنى والثراء، ويمارسون التجارات ويؤجرون الحوانيت ويملؤونها بالبضاعات، فإذا جمعوا كل ما قدروا عليه من أموال المعاملين معهم، كانوا على أمرين، إما أن يهرب ويستتر بحجة الإفلاس؛ وإما أن يثبت الفلس عند القاضي أو الوالي كخطوة معلنة لإسقاط كل ما عليه من حقوق، فإن سُجن صبر على سجنه ولا يؤدي حقًّا، حتى إذا انقضت فترة سجنه وأُطلق سراحه وجد المال في انتظاره(١١٩).

المتعرضون لصناعة الكيمياء:

هؤلاء يدعون قدرتهم على إنتاج الذهب والفضة من الحديد والنحاس، فيلجأون إلى أصحاب الأموال يطمعونهم فيما قد يعود عليهم بالثروات، ويطلبون منهم إعداد مكان وتوفير آلات لها قيمة لتساعدهم في أعمالهم، ثم يستغل غفلة من صاحب المكان فيأخذها ويهرب، ومنهم من يشترط أن عمله يحتاج إلى بعض الوقت، فيقتنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، فإذا حان الوقت المعلوم أدعى كساد عمله محتجًّا بأسباب وهمية، وقد يطلب من صاحب المال الذي ينفق عليه أن يعطيه مهلة ثانية، فإن حمله الطمع على تصديقه ووافقه، احتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان، أو قد يغافل صاحب المكان ويفر هاربًا(١٢٠).

أصحاب المطالب (الكنوز المدفونة في الأرض):

هم قوم يجعلون في الجبال أمارات أو علامات من ردم وأحجار، ويأتون إلى أصحاب الأموال ممن يعتقدون أن أموال الأمم السابقة مختزنة كلها تحت الأرض ومختوم عليها بطلاسم سحرية، فيدعون أنهم يعلمون مواضع هذه الكنوز، وكيفية حل طلاسمها، ويذكرون أماراتها ويستحضرون معهم ما يحلها من بخور وقرابين وأوراق متخرمة الحواشي يدعون بزعمهم أنها من خطوط أهل الدفائن، وأنهم في حاجة إلى عدة ونفقة وتمويل على أن يقاسموهم فيما سيحصلون عليه، فيوافقونهم، ويزدادون طمعًا وشرها كلما رأوا من أمارات وهمية، حتى إذا ما استدرجوهم للإنفاق عليهم إلى ما شاء الله، ولوا هاربين وقد سرقوا العدة التي معهم، وربما قتلوهم لأجل ذلك[١٢١]. وعلى الرغم مما كان يكتنف هذا النشاط من مخاطر، فقد ظل العثور على الكنوز المدفونة مطلبا لا يفتر لدى أصحاب الأموال ولا يكفون عن البحث عنها، يقول ابن خلدون في مقدمته: " نجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء هذه الدفائن والكنوز وتحصيلها، ومساءلة الركبان عنها"[١٢٢].

المبرطحون:

المبرطحون من أصناف المحتالين، قال عنهم الأبشيهي: "هم من الخونة والناس بهم أكثر غرورًا "، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحدًا منهم لشراء حاجة، سارع لقضائها مستنفذًا طاقته في اختيار أتمها جودة، وأوفرها وزنًا وأرخصها سعرًا، حتى إنه قد يضع في ثمنها شيئًا من ماله، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد أمانته وصدقه ولا يزال هكذا حتى يكتسب ثقته ويعهد إليه بمقاليد أموره ومفاتيح خزائنه، وعندئذ يكون قد حصل على بغيته فينقض عليها بلا هوادة ولا رحمة.

المتنسمون:

إذا كان *بعض* أصحاب الأموال قد اتخذوا من الدين سُلمًا إلى الدنيا، وشباكًا

لصيد ثرواتهم، وتبريرًا لبخلهم والاقتصاد في نفقاتهم، فإن المحتالين بدورهم لم يتورعوا عن ارتقاء درجاته والتوسل به لنيل مبتغاهم، وأبدوا في ذلك تفوقًا كبيرًا، وكان منهم ما عرفوا بالمتنسمين؛ وهم أهل الرياء ممن بالغوا في إظهار التعفف والنُّسك ومجانبة الحرام، وربما حكوا موضع السجود بالثوم في إشارة منهم للمواظبة على الصلاة والصيام والقيام حتى يشتهر ذكرهم عند العوام والخواص، كانوا يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف، ويمشون إلى أبواب الحكام والولاة والقضاة على صفة التهاني بالأعياد، ويظهرون النزاهة والغنى، وذلك بهدف أن ينالوا الثقة فتودع عندهم أموال اليتامى وودائع الناس، فإذا ما استقرت تحت أيديهم قدحوا قرائحهم واحتالوا لأكلها بالباطل، فإذا ما طولبوا بها جحدوها وأنكروها وربما بددوها، وقد امتلأت ساحات القضاء وكتب القضاة بمثل هذه القضايا مما لا داعي لتكرار ذكرها، الأمر الذي دفع الأبشيهي إلى القول: " وهؤلاء أشر من اللصوص وقطاع الطرق، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، أما تشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم "[١٢٣].

- **المحتالون بالدين:**

اتسعت مجالات الاحتيال، وتعددت أصناف المحتالين، فتوغلوا في كافة الأنشطة الحياتية، حتى الدين لم يتورعوا عن اتخاذه شباكًا يصطادون به أموال الناس ويستجلبون مدحهم، ولعل تحذير ابن الجوزي " ارتفع القوم إلى التلاعب بالدين فأي بقاء للشريعة " يعبر بجلاء عن هذا التيار، فكثر منهم من عمل بقراءة القرآن تكسبًا لا ثوابًا ولا تأدبًا، وقد استنكر ذلك الحسن البصري، فقال: " أُنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً، اشتغلوا بالقراءات الشاذة وتركو المتواتر المشهور "، ولحنوا فيه حتى صيروا ذلك على قانون الأغاني، وكانوا يوقدون النيران الكثيرة للختمة ليلاً تشبهًا بالمجوس، ويجتمع الرجال والنساء للفساد لا يعنيهم إلا دراهم امتلأت بها أكياسهم، ومنهم من كان يلزم قراءة القرآن وقت الآذان وحين اجتماع الناس في المسجد، ومنهم من يلزم قراءة المعوذتين ثم يدعو

بختم القرآن ليعلم الناس أنه ختم الختمة، كل ذلك طلبًا للرياء واصطيادًا لأموال الناس[١٢٤].

كذلك كان منهم من تصدى لرواية الأحاديث النبوية والإفتاء بلا علم ولا فهم ولا دراية، وتتبعوا شواذ الأحاديث والمنسوخ والغرائب، وقد أفاض ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس في عرض فضائحهم، وكان مما قاله فيهم: " أقدموا على ذلك ومنهم من لا يحفظ القرآن ولا يعرف أركان الصلاة وإنما مقصودهم الرياسة والمباهاة "[١٢٥].

أما الوعظ والقصص فحدث ولا حرج، وقد عد الأدباء القصاص من المحتالين؛ لأنهم يستأصلون أموال الناس بالكلام[١٢٦]. ولندع ابن الجوزي يتحدث عن بدعهم وحيلهم، فيقول: "كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء، ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجُهَّال، وبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس، وتعلق بهم العوام والنساء، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص ما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع في هذا الفن، حتى إن قومًا منهم كانوا يضعون أحاديث الترغيب والترهيب، ولبس عليهم إبليس بأنهم قصدوا بذلك حث الناس على الخير وكفهم عن الشر، ووقفوا على ما يطرب القلوب، فأنشدوا الأشعار الغزلية وادعوا أنهم قصدوا بها الإشارة إلى محبة الله عز وجل، ويظهرون التواجد والتخاشع وبكاء يخالطه الرياء، ومنهم من يتحرك الحركات على إيقاع قراءة الألحان التي هي أقرب إلى الغناء، والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه ورجليه، وما يوجب ذلك من تهييج النفوس وصياح الرجال والنساء وتمزيق الثياب لما في النفوس من دفائن الهوى ".

وإذا كان هؤلاء لجأوا إلى إنشاد أشعار الغزل، فإن آخرين أنشدوا أشعار النوح على الموتى، ولمزيد من التأثير عقدوا مجالسهم في المقابر منتهكين حرمتها، حيث يختلط الرجال بالنساء ويكثر الصياح ويصير المكان كالمأتم، ويزيدون في غيهم

جمعًا للقلوب، وحشدًا للجموع واستكثارًا من المال الممنوح، وقد صرح ابن الجوزي بذلك فقال: " إن من القصاص من جعلوا القصص معاشًا يستمنحون به الأمراء والظلمة والأخذ من أصحاب المكوس، والتكسب به في البلدان"(١٢٧).

- **مدعو التصوف:**

كان ادعاء الزهد والتصوف من الحيل الشهيرة التي لجأ إليها المحتالون لاكتساب معاشهم، يقول صاحب " تلبيس إبليس": (قد اندس في الصوفية أقوام تشبهوا بهم وشطحوا في الكرامات وادعائها، وأظهروا للعوام مخاريق صادوا بها قلوبهم وأموالهم، فلبسوا الأثواب المخرقة غير المخيطة، وتفننوا في صنع المرقعات التي كانت شباكًا يصطادون بها أموال الناس، وقد عُرض على أحدهم بيع مرقعته، فقال: إذا باع الصياد شبكته، فبأي شيء يصطاد؟" وفي هذا الصدد ذكر أحدهم أنه دخل الحمام يومًا، فرأى على بعض أوتاده جبة مرقعة بفوطة، فقال لصاحب الحمام: أرى سلخ الحية، فلمن هي؟، فذكر له أحد المحتالين ممن اتخذ من التصوف والزهد وسيلة لجمع الأموال والعطايا(١٢٨).

ومع المرقعات أهملوا مظهرهم وهيئتهم، وانقطعوا في المساجد والأربطة اعتمادًا على صدقات الناس، وقد كثر انتقادهم والتحذير من حيلهم، فوصفوا بأنهم "أكلة رقصة" قد مالوا إلى الدنيا وجمع الأموال من أي وجه كان إيثارًا للراحة وحبًّا للشهوات، يجلسون في المسجد وقلوبهم معلقة بالباب، لا يبالون من بعث إليهم بالمال، فربما بعث إليهم الظالم والماكس فلا يردونه، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت حيل هؤلاء المحتالين أقوى من صيحات التحذير منهم، فسلبوا عقول الناس بفصاحتهم وانتزعوا عواطفهم ببراعتهم، حتى إنهم قدموهم على العلماء ورجال الدين " فلو رأوا جبة صوف على أجهل الناس عظموه، خصوصًا إذا طأطأ الرأس وتخشع لهم، ويقولون: أين هذا من فلان العالم، هذا طالب دنيا، وهذا زاهد لا يأكل عنبة ولا رطبة ولا يتزوج قط، جهلاً منهم بشريعة محمد النبي ﷺ"(١٢٩).

- **المزورون:**

مع فساد الجهاز الإداري وشيوع الوساطة والمحسوبية، تطلع بعض المحتالين لأن يكون لهم نصيب من خيرات بلادهم، فاستغلوا قدرتهم على محاكاة الخطوط، وزوروا خطابات ومكاتبات على الوزراء وكبار رجال الدولة وأصحاب الأموال والأعمال للحصول على مبتغاهم من عطايا وهبات، كما زوروا خطابات وساطة للحصول على الوظائف والأعمال، ومن ذلك ما حكاه الصابئ في كتابه " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء " عن أحد هؤلاء المزورين الذي زور كتابًا ادعى أنه من الوزير أبى الحسن علي بن الفرات – وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي – إلى أبي زنبور الماذرائي عامل الخراج بمصر يطالبه أن يؤمن لحامل الخطاب وظيفة سنية وراتبًا مجزيًا ويوصي بإكرامه والإنعام عليه(١٣٠).

من أصناف هؤلاء المزورين أهل الفصوص، وهم جماعة ينقشون أسماء بعض أصحاب الأموال على فصوص، ويذهبون إلى بيوتهم في غيبتهم ويطلبون من المال ما أرادوا دون أن ينكر عليهم أهل البيت شيئًا(١٣١)، ويجعلون الفص علامة لأهل الدار، ودليلاً على أنهم مرسلون من قبل صاحب الدار.

- **المنجمون والمعزّمون والعرافون والكهنة والسحرة:**

أما المنجمون فهؤلاء الذين ادعوا معرفة الغيب وأخبار المستقبل، مستعينين في ذلك بحركات النجوم والأفلاك، كانوا يجلسون على قارعة الطريق وفي ساحات المساجد، ويتجولون في الأسواق والدروب بين الحوانيت والبيوت(١٣٢). وقد راجت تجارتهم وربحت بضاعتهم وتشعبت حيلهم فلم تقتصر على العوام وأوساط الناس فحسب، بل وصلوا إلى علية القوم وأرباب الأموال والمناصب، وينبه ابن الجوزي إلى ذلك، فيقول: "والمنجمون مع أرباب المناصب لا يحلون ولا يعقدون إلا بقولهم، ويعقب متحسرًا على ما آل إليه الأمر قائلاً: فسبحان من يحفظ هذه الملة ويعلي مكانتها "، ولعل هذا ما دفع كثيرًا من الخلفاء لتتبعهم ومنعهم من الجلوس في الطرقات اتقاء شرهم(١٣٣).

شابههم في ذلك المعزمون والعرافون والكهنة، وهؤلاء أيضًا كان ادعاء علم الغيب والإعلام عن المستقبل بضاعتهم ولكن لكل منهم طريقته، فمنهم من ادعى الاستعانة بالجن، وفيهم يقول ابن الجوزي: " وههنا اليوم معزمون يكلمون الجني الذي في باطن المجنون، فيكلمهم بما كان ويكون وما شاكل ذلك من الخرافات ". ومنهم من كان يقرأ خطوط الكف، ومنهم من كان يحتال بضروب الشعوذة والسحر، وهؤلاء راجت تجارتهم وانطلت حيلهم على عقول الناس، فاعتمدوا على قولهم وشاع بينهم أمرهم حتى أصبحوا يمثلون خطرًا على عقائد الناس، فهب العلماء للتحذير منهم، وفضح حيلهم، يقول ابن الجوزي: " ومما جروا فيه على العادات اعتمادهم على قول الكائن والمنجم والعراف وقد شاع ذلك بين الناس، واستمرت به عادات الأكابر، فقل أن تجد أحدًا منهم يسافر أو يفصل ثوبًا أو يحتجم إلا سأل عنه المنجم وعمل بقوله، ولا تخلو دورهم من تقويم وكم من دار ليس فيها مصحف "[١٣٤].

وشابه هؤلاء مدعي السحر والأعمال السحرية؛ حيث كانت بضاعتهم من الأحجبة والتعاويذ والتمائم شباكًا اصطادوا بها ثروات ضعاف الدين من أصحاب الأموال[١٣٥].

مدعو التطبب وباعة الأوهام والأكاذيب:

لم يترك المحتال فرصة إلا واستغلها للكسب من ورائها، فمنهم من ادعى قدرته على المعالجة وتحضير الأدوية وبيعها وبيع حلم الشفاء معها، ومن طريف ذلك ما حكاه ابن طيفور في " كتاب بغداد " عن رجل كان يقف في شارع الخلد منذ ما يزيد عن عشر سنوات، وقد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي عليها، مدعيًا أنها لعلاج بياض العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، والناس قد انهالوا عليه، وأقبلوا إليه يستوصفونه، والعجيب أن إحدى عينيه كانت مطموسة والأخرى مصابة، فلما لاحظ ذلك أحد خواص الخليفة المأمون، فسأله ألم يكن من الأولى أن تستخدم دواءك لعلاج عينيك، فرد عليه قائلاً: يا جاهل اشتكت عيني في مصر وأنا الآن في العراق، ورغم عدم منطقية الرد، إلا أنه أقنع الحاضرين وكادوا يفتكون بالسائل في مشهد يؤكد ما سبق ذكره من قدرة

المحتال على الإقناع والتأثير في مشاعر الناس وأحلامهم واستغلال حاجتهم[١٣٦].

توسع المحتالون في بيع الأوهام للناس، فمن مدع ادعى أنه يملك حرزًا لا يغرق صاحبه[١٣٧]، وآخر ادعى أنه يملك دعاء علمه النبي ﷺ في المنام وأوصاه أن يعلمه أمته، وكتبه في قراطيس بخلوق ومسك وزعفران، فتكالب الناس عليه لشرائه للحصول على بركته[١٣٨]. وهكذا تعددت حيل المحتالين تعددًا كبيراً بتعدد المواقف التي يمرون بها، إذ كانوا يحسنون استغلالها، وساعدتهم في ذلك سرعة بديهتهم، فاتخذوا لكل موقف حيلته المناسبة، حتى الموت بهيبته ورهبته لم ينج منهم، فاحتالوا به لنيل مقاصدهم، ولعل من أطرف ما ذكر في هذه الصدد قصة ذلك المحتال الذي مر ببيت به ميت، فاحتال للدخول عليه، ولما خرج لأهله قال: يا قوم اتقوا الله ولا تدفنوه فهو حي وإنما اعترته سكتة، أنا أسلمه مفتوح العينين بعد يومين، وبفصاحته وثقته بنفسه أقنعهم، فقام إلى الميت فنزع ثيابه، وشد له العمائم، وعلق عليه التمائم، وألعقه الزيت وأخلى له البيت، وقال: دعوه ولا تروعوه فإن سمعتم له أنينًا لا تجيبوه، وخرج من عنده، وقد شاع الخبر وانتشر بأن الميت قد نُشر، فانهالت عليه المبار من كل دار، وانثالت عليه الهدايا من كل جار حتى ورم كيسه فضة وتبرا[١٣٩].

ولنختتم حيلهم بتلك الحيلة الطريفة التي تفتق عنها ذهن أحدهم عندما مر على قرية وهي تعاني من سيل عرم هدد أرضها بالغرق، فعرض على أهلها أن يكفيهم شره ويصرف عن القرية مضرته، بشرط أن يذبحوا في مجرى الماء بقرة صفراء، ويأتوه بجارية عذراء، ويصلوا خلفه ركعتين، فذبحوا البقرة وزوجوه الجارية، وقام إلى الركعتين يصليهما والناس خلفه، فأطال قيامهما وركوعهما وسجودهما، وفي السجدة الثانية فر هاربًا وترك القوم ساجدين[١٤٠].

ومن بيع الأوهام إلى بيع لحظات من المرح والسعادة، فكثر منهم المهرجون ممن راجت بضاعتهم في مدينة السلام حيث كانوا يعقدون حلقهم، فيزدحم الناس حولهم ليشاهدوا حيلهم لإضحاك جمهورهم، فمن قرَّاد يرقص قرده،

ومن مقيد يفك قيوده، والناس تضحك وقد انصرفوا مسرورين بعد أن نفحوهم ما جادت به أنفسهم من دراهم ودنانير، ونقف مع بديع الزمان الهمذاني في هذا المشهد الذي وصفه فقال: " انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب أعناقهم، ويشق الضحك أشداقهم، فساقني الحرص إلى ما ساقهم، فإذا هو قرَّاد يرقص قرده ويضحك من عنده "(١٤١).

يمكن أن نضم إلى طائفة المهرجين المتنبئين الذين اتخذوا من ادعاء النبوة وسيلة تحايل ليس لاكتساب المال فحسب، بل للفت أنظار العسس والعيون إليهم، فيتم القبض عليهم ويمثلون أمام الخليفة، وهذا غاية مرادهم، فيستعرضون أمامه حسن نادرتهم وسرعة بديهتم، وينصرفون بجوائزهم بعد أن يضحك الخليفة وحاشيته على نوادرهم، وقد حفظت كتب الأدب كثيرًا من محاورات الخلفاء مع هؤلاء المحتالين من المتنبئين(١٤٢)، مما يلقي بضوء على جوانب مهمة من شخصيتهم على نحو ما فصلنا آنفًا.

وعلى عكس هؤلاء، اتخذ بعض المحتالين أساليب أشد عدوانية لإجبار الناس على تقديم ما يطلبونه من ميرة ومال، ويستعينون في ذلك بموهبتهم الشعرية وقدرتهم على النظم، فتراهم في كل واد يهيمون، لا يتورعون عن السب والقذف والهجاء والكذب واتهام الناس بالفواحش، يقفون على أبواب الأغنياء فيخاف أهل الصيانة من لسانهم وهجائهم فيعطونهم اتقاء شرهم، وربما مدحوهم فيعطونهم حياءً من جيرانهم وصيانة لمكانتهم(١٤٣).

المتطفلون(١٤٤):

المتطفلون هم الذين يتعيشون من التطفل على موائد الأغنياء وولائمهم، ويتحيلون لفرض أنفسهم عليهم فرضًا، وهؤلاء كانوا يمثلون طائفة مميزة، اتخذوا لهم زيًّا خاصًّا وهو الطيالس الزرق والقلانس تشبهًا بأشراف بغداد وأثريائها، وكان يرأسهم عريف يبرهم ويكسوهم ويعلمهم أسرار صناعتهم، ويرشدهم إلى أماكن الولائم ويقاسمهم فيما يحصلون عليه من طعام وشراب، وكان يساعده عدد من

الجواسيس والعيون يخبرونه بأخبار أهل طائفته، فإن خان أحدهم عهده وامتنع عن تقديم نصف ما حصل عليه للعريف كما هو متفق عليه، أمر بضربه وطرده من الطائفة، أما عن فلسفتهم فهم يرون "أن هذا رزق الله فلم لا نأخذ نصيبنا منه؟"(١٤٥).

وكان للمتطفلين تراث من النصائح يتوارثونه أبًا عن جد يعلمهم كيف يواجهون المعذبين بوجودهم من أهل العرس والدار، وكيف يفرضون أنفسهم على موائدهم وفي مطابخهم، وكيف يحتالون لإجبارهم على فتح الأبواب لهم رغم أنوفهم(١٤٦). وقد تفرد المؤرخ الخطيب البغدادي بذكر نوادرهم وبراعة حيلهم في كتابه النادر والمعنون بـ"التطفل وحكايات المتطفلين"، كما بُثت أخبارهم ومعاناة الناس منهم في كثير من الأدبيات التاريخية.

ضحايا الاحتيال والمحتالين:

لم يكن الاحتيال آلية من آليات التكيف والتعايش التي لجأ إليها المحتالون لكسب قوتهم فحسب، بل كان أيضًا شكلًا من أشكال المقاومة الاجتماعية والانتقام من المجتمع على نحو ما فصلنا سابقًا، لذلك فقد كانت سهامهم موجهة أولاً لأصحاب الأموال والثروات ممن قادهم جشعهم وأطماعهم للوقوع في حبائلهم(١٤٧). وامتدت حيلهم وجرأتهم إلى علية القوم من أصحاب النفوذ والسلطة فزوروا خطابات الوساطة عن الوزراء(١٤٨). ووقع في براثن أكاذيبهم الولاة والقضاة فسلبوا منهم عطاياهم(١٤٩)، حتى الخلفاء لم يسلموا من تحايلهم، وانتزاع الجوائز منهم(١٥٠)، وهم في ذلك كانوا يستشعرون لذة الانتصار والإحساس بالتفوق.

هذا في الوقت ذاته الذي لم تسلم فيه أوساط الناس وعوامهم من شبائكهم، فقد كانت هذه الفئات تمثل جمهور ضحاياهم على نحو ما فصله البحث آنفًا.

جماعات الدعم في عالم الاحتيال:

دفع إحساس المحتال أنه في حالة عداء مع الظروف والمجتمع إلى حرصه على أن يندرج في جماعات لتقويته وتدعيمه وبث الثقة في نفسه، وتقوية

إيمانه بحقه ومساعدته في أعماله، وكان في مقدمة هذه الجماعات الداعمة له:

الأسرة: كان من حسن الحظ أن أوردت المصادر التاريخية شذرات متفرقة وعفوية غير مقصودة ألقت الضوء على بعض جوانب حياة المحتال الأسرية، وما يسودها من علاقات اجتماعية بين أفرادها، وقد أوضحت حرص المحتال على تكوين أسر مترابطة تبدأ من لحظة اختيار زوجته، والتي كان يراعي أن تكون قريبته تربط بينهما رابطة الدم، وأن تكون من نفس فئته الاجتماعية وثقافته حتى تستطيع أن تتكيف مع متطلبات حياته، وتتفهم ظروف معيشته، وفي هذا الصدد نسوق نصًّا بديعًا بعد أن وصف فيه أحد المحتالين زوجته وهي تقوم بمهامها المنزلية بمهارة ورشاقة وجمال، استطرد قائلاً: " أنا أعشقها لأنها تعشقني، ومن سعادة المرء أن يُرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته، ولا سيما إن كانت من طينته، وهي ابنة عمي لحا، طينتها طينتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي وأرومتها (أي أصلها) أرومتي، ولكنها أوسع مني خُلقًا وأحسن خلقًا "[١٥١].

كانت المرأة تشارك زوجها في نصب الشراك وإحباك الحيل، وكانت أحيانًا تقوم بدور مؤثر في العروض التمثيلية فتستدر دموع الجمهور وتعاطفهم وتستعين في ذلك بما أوتيت من مكر وفصاحة وجرأة وغيرها من ملكات فرضتها عليهم حرفتهم[١٥٢]. وغالبًا ما كان يكتسب الأبناء أسرار هذه الحرفة ومواهبها، فكان منهم من هو أكثر إجادة من والديه، وخير معين لهما، وقد وصف أحدهم ابنه فقال:"هو في النسب فرخي وفي المكتسب فخي"[١٥٣].

كتائب المحتالين: الاحتيال في الأساس هو عمل فردي يقوم به المحتال منفردًا، وقد يساعده بعض أفراد أسرته إذا استلزمت الحيلة ذلك[١٥٤]. ولأن عملهم يقوم على الخداع والتخفي فكان من الطبيعي ألا نسمع عن تنظيم أو رابطة تجمع بينهم – إلا فيما ندر – ولكن هذا لم يكن يمنع من وجود اتحاد وتعاون بين عدة أفراد يتشاركون في حيلة واحدة، أطلق عليهم الأدباء اسم كتائب المحتالين.

كانوا يمثلون جماعات داعمة لبعضهم البعض[١٥٥].

الجيران والمعارف: حظي المحتالون بود وتعاطف المحيط الاجتماعي الضيق الذي يعيشون فيه والجماعات القريبة منهم، ولعل هذا يرجع إلى انتمائهم غالبًا إلى نفس الطبقة، فجمع بينهم الإحساس بقوة وقهر الطبقات العليا نحوهم، والشعور *بشدة* الحاجة مع ضيق ذات اليد، لذلك فهم لم ينظروا إليهم على أنهم محتالون بالمعنى البغيض، وإنما هم متكسبون يسعون لاكتساب معاشهم، كما أنهم كانوا لا يمثلون لهم أي تهديد، بل على العكس استطاعوا بخدماتهم احتواء آلامهم وشقائهم، فباعوا لهم أحلام الشفاء من الأمراض، والنجاة من الأخطار، ونجح المهرجون منهم في انتزاع ضحكاتهم ونسيانهم لهمومهم، حتى العرافون ومدعو علم الغيب تفننوا في بيع أوهام السعادة في الغد لأشقياء اليوم، مما ساعدهم على تجاوز معاناتهم من الظلم والقهر في مقابل ما سمحت به أنفسهم من دراهم معدودة أو صدقات يسيرة، فاختفت العداوة، وساد التعاطف بينهم، وقد تجلى ذلك في أبلغ صورة فيما رواه ابن طيفور عن بائع أدوية علاج العمى عندما استهزأ به أحد رجال البلاط العباسي، فتصدى له جمهوره وأخرجوه من بينهم مذمومًا ومهددًا بالضرب والإهانة[١٥٦].

أما من نجح من هؤلاء المحتالين في الاحتيال على الأغنياء وسلبوهم أموالهم، وأشبعوا غليلهم في الانتقام منهم، فقد حولوهم إلى أبطال شعبيين، افتخروا بهم، وتناقلوا أخبار حيلهم ولهجت ألسنتهم بذكرهم والإشادة بذكائهم.

موقف المجتمع من المحتالين:

أ) الموقف الرسمي:

لم يكن موقف المحتال من مجتمعه موقفًا عدائيًّا صريحًا، فهو لم يصرح بعداوته وإنما لجأ إلى مداراته والاندماج فيه، وحتى في انتقاده والتعبير عن تذمره وسخطه بعد عن المجتمع وشخوصه، ولجأ إلى الرمز فصب جام غضبه على الأيام وصروف الزمان ونكد الحظوظ ومعاندة الليالي[١٥٧]. الأمر الذي جعله في

مأمن من المواجهة الصريحة لبطش المجتمع وانتقامه، خاصة وأنه على المستوى الشرعي كانت أعمال الاحتيال وسائل آمنة لا تخضع أهلها للعقاب، هذا على الرغم من تعدد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحرم أكل أموال الناس بالباطل، وخيانة الأمانة والغش والخداع[١٥٨]، إلا أنه على مستوى الواقع نجا المحتالون بأفعالهم، وذلك لأن القاعدة العامة التي أقرها علماء الشريعة تقضي باعتبار المقاصد في الأعمال والتصرفات، والاعتداد عليها بالنيات ومحاسبة كل امرئ بما نوى، عملاً بقول رسول الله ﷺ "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى"[١٥٩]، وبطبيعة الحال لم يكن أسهل عليهم ولا أيسر من ادعاء صدق النوايا.

لذلك لم نجد في المصادر التاريخية والأدبية أخبارًا عن أية ملاحقات شرطية أو قضائية ضدهم إلا فيما ندر مما ورد في كتب القضاة ممن استطاعوا بذكائهم وحيلهم من استخلاص أموال الناس من براثنهم، ولكن كانت تلك جهودًا فردية واجتهادات شخصية[١٦٠]، أما المعتاد والشائع، فكان المحتال يعترف أمام القاضي بأخذه أموال الضحايا بنية المشاركة في التجارة والربح، ويدعي كساد الأسواق وخسارة الأموال لأسباب لا يد له فيها، عندئذ يأمر القاضي بتسجيل الأموال عليه ويطالبه بالسداد بلا أية ضمانات، ومع إثبات إفلاسه عند الحاكم لا يستوفى من دينه شيئًا إلا في الآخرة[١٦١]. يقول ابن الجوزي: " ومن عاداتهم إثبات الفلس عند الحاكم، ويعتقد الذي قد حكم له بالفلس أنه قد سقطت عنه بذلك الحقوق[١٦٢]، حتى وإن حبس، صبر على حبسه، حتى يخرج ثم يطلق في المال يده، ولعدم جدوى هذه الإجراءات فقد استسلم الضحايا لأقدارهم، وأذعنوا لسوء حظهم الذي أوقعهم في براثن هؤلاء المحتالين.

ومن ناحية أخرى، لم تكن نظرة المجتمع للحيل على أنها عمل غير شريف أو أنها منافية للأخلاق وللآداب العامة، بقدر ما هي عمل من أعمال الذكاء والمهارة والدهاء، وتجلى ذلك فيما لاحظته الدراسة من فتور النقد الرسمي لسلوكهم، بل تقبله والتساهل معه والسكوت عليه، وقد رأينا كيف استطاع بعضهم ممن تمكنوا من الوصول إلى الخلفاء بحسن نادرتهم وسرعة بديهتهم من كسب

إعجاب الخلفاء ونيل جوائزهم[١٦٣]، وشاركهم في ذلك الوزراء الذين رأوا أنه من حسن السياسة مداراتهم والتغافل عنهم، وأبدوا في ذلك تعاطفًا كبيرًا معهم، دفعهم لذلك إحساسهم بالعجز عن القيام بما ينبغي لإصلاح أحوالهم، والتصدي لما تفشى بينهم من فقر وبطالة. وتجلَّى هذا بوضوح تام فيما حكاه الصابئ في تحفته " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء " من قصة المزور الذي زور عن الوزير أبي الحسن بن الفرات خطابًا إلى أبي زنبور الماذرائي عامله على خراج مصر يوصيه به إحسانًا، وقد بالغ في المطالبة بإكرامه إلى حد الخروج عما جرت به العادة في مثل هذه الحالات، مما أثار ريبة عامل مصر، فأرسل للوزير يتحقق من صدق الكتاب، فأرسل إليه الوزير يعترف بصدقه قائلاً: " هذا كتابي، وهذا رجل تحرم بخدمتي وما اعتقده فيه أكثر مما تضمنه الكتاب، فأحسن تفقده، ووفر رفده، وصرفه فيما يعود عليه نفعه، وتصل إليه فوائده ". فكان مبلغ ما وصله منه يزيد عن عشرين ألف دينار، ولما التقى بالوزير ليشكره، اختبر مهاراته، فوجده كاتبًا سديدًا، فاستخدمه[١٦٤].

كذلك الحكام والولاة كثيرًا ما عرضوا عليهم أعمالاً ووظائف ومرتبات مجزية، ولكنها لم تكن تنال رضاهم، إذ كانوا لا يرضون بغير الاحتيال بديلاً، لا سيما وأنه كان يدر عليهم ما تصبو إليه أنفسهم وفي ذلك قال أحدهم:

لَجَوْبُ البِلادِ مَعَ المَتْرَبَهْ ... أَحَبُّ إليّ مِنَ المرْتَبَةِ
لأنّ الوُلاةَ لهُمْ نَبوَةٌ ... ومعْتَبَةٌ يا لَها من مَعْتَبَةِ[١٦٥]

أما على المستوى الشعبي:

لم يكن التسامح الرسمي الذي أبدته الدولة ومؤسساتها إزاء هؤلاء المحتالين، يغني عنهم شيئًا في مواجهة بطش الأغنياء وأصحاب الثروات، الذين حملوا على عاتقهم مهمة التصدي لهم وإعلان العداوة ضدهم، فكثرت مطالباتهم للسلطة وللجهات المعنية بتوقيع أقسى العقوبات عليهم، ولعل نظرة سريعة على ما اقترحوه على الوزير ابن الفرات عندما سألهم عن رأيهم فيما ينبغي أن يُعاقب

به المزور – سالف الذكر – إزاء فعلته، فاقترح أحدهم تأديبه وضربه وحبسه، واقترح آخر قطع إبهامه، واقترح ثالث فضحه وكشف سره وتجريسه، وجاء الأخير بخلاصة القول عندما اقترح على الوزير ضرورة طرده هو وأمثاله ونفيهم خارج البلاد، الأمر الذي أثار استنكار الوزير وانتقاده، فقال لهم: "ما أبعدكم عن الخيرية وأنفر طباعكم عن الحرية"، ملتمسًا له العذر على نحو ما رأينا(١٦٦). الأمر الذي يكشف بجلاء عما كان يعتمل في نفوس هؤلاء الأثرياء من حقد وكراهية ورغبة عارمة في التخلص منهم وإبعادهم عن البلاد، في إشارة واضحة لما كان يموج به المجتمع من صراع اجتماعي.

كان للأدباء دور كبير في تأجيج هذا الصراع بما نشروه من تحذيرات مباشرة، كان لها أبعد الأثر في إثارة خوف الأثرياء بما كانوا يمثلونه من تهديد مباشر لهم ولأموالهم، وكان الجاحظ في مقدمة هؤلاء الأدباء الذين تصدوا لكشف حيلهم والتحذير منهم، قال: هؤلاء قوم بودهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حد السلامة إلى الغفلة، حتى لا يكون للأموال حارس ولا دونها مانع فاحذرهم، ولا تنظر إلى بزة أحدهم فإن المسكين أقنع منه، ولا تنظر إلى مركبه فإن السائل أعف منه، واعلم أنه مخادع وإن كان في ثياب جياد، وروحه روح نذل وإن كان في جرم ملك "(١٦٧).

ويكرر الجاحظ تحذيراته بلا كلل، فيقول أيضًا: " احذرهم ولا تنظر إلى بزة أحدهم ولا تنظر إلى مركبه، وأحذر رقاهم وما نصبوا لك من الشرك، واحرس نعمتك وما دسوا لها من الدواهي، واعمل على أن سحرهم يسترق الذهن ويختطف البصر، قال رسول الله ﷺ إن من البيان لسحرا، واحذر مديحهم، إني أحذرك مصارع المخدوعين، وأرفعك عن مضاجع المغبونين"(١٦٨).

وفضلاً عن الجاحظ صرح كثيرٌ ممن تصدوا للكتابة عن هؤلاء المحتالين بأن مقصدهم هو التنبيه إلى خطرهم والتحذير من حيلهم.

أما سائر الجماهير الشعبية من أوساط الناس وعوامهم فقد أبدوا تعاطفًا

كبيرًا مع هؤلاء المحتالين ودعمًا، خاصة إذا ما تعرضوا لمضايقات ممن قد تسول له نفسه بإيذائهم أو السخرية منهم، مدفوعين لذلك بمبررات فصلناها آنفًا في هذا البحث.

وإزاء هذا الصراع الاجتماعي المتفاقم، والذي كان ينذر بمزيد من انفصام عرى المجتمع وروابطه، ظهرت بعض مبادرات إصلاحية قادها المصلحون من العلماء ورجال الدين وقادة الفكر والأدب، لتصحيح الأوضاع واستعادة القيم ونشر تعاليم الدين وأوامره ونواهيه ومعاملاته، وتصحيح المفاهيم بما يضمن وضع الأمور في نصابها، فأعلوا من شأن قيمة الصبر على الفقر، وأن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لمكان صبرهم على البلاء، وقادوا حملات واسعة في مواجهة طغيان المال، والإعلاء بفضائل النفس وليس المال، وفي ذلك قالوا:

غِنـــى الـــنفسِ لِمَـــن يَعقِـــلُ ... خَيـــرٌ مِـــن غِنـــى المـــالِ
وَفَضـــلُ النـــاسِ فـــي الأَنفُـــسِ ... لَـــيسَ الفَضـــلُ فـــي المـــالِ

ومما قالوه أيضًا ونشروه: "المال يفسد الأديان والقلوب، إنه ما نشب هم إلا بالحاجة إليه، ولا وقع رياء إلا بالحيلة عليه، فإنه كالحية الرقطاء التي لا تطاق ولا يصلح قربها إلا لمن شرب الترياق"[١٦٩]. حتى بديع الزمان الهمذاني بعد رحلته الطويلة والتي صال وجال فيها مع المحتالين في المقامات، خلص في نهايتها إلى خلاصة خبرته وغاية موعظته، فقال: " هل ترون المال إلا عند البخلاء دون الكرماء، والجهال دون العلماء، إياكم والانخداع، إنما الفخر إما في نسب شريف أو علم منيف"[١٧٠]. وهكذا انتشرت تيارات إصلاحية تدعو إلى نبذ البخل والشح، وعمل الخير، والتوسع في أعمال البر والإحسان والصدقات، "وأما البخيل بالذهب فمات وذهب، وأما الكريم فعاش بعد الموت بما وهب"[١٧١]. وغيرها من قيم كان من شأنها تحقيق العدالة الاجتماعية، وتذويب الفوارق الطبقية

واحتواء هذه الفئات وغضبها وتقدير قوتها والتحذير من ثورتها كصمام أمان وسلام للمجتمع كله.

الخاتمة:

اتخذت الدراسة من الاحتيال والمحتالين موضوعًا لها، وعلى الرغم مما بدا على هذا الموضوع من ظرف وطرافة على نحو ما تناوله أدباء هذا العصر وشعراء ذاك الزمان، وما أتوه في هذا الفن من فصاحة وبيان، إلا أن هذا الموضوع في جوهره كان يمثل بعدًا عميقًا في المجتمع العباسي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين، إذ كشف بجلاء عما كان يجوب به من صراع اجتماعي، كما ألقت الدراسة الضوء على كثير من جوانب المجتمع سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا تضافرت خيوطها لتسفر عن تعاظم هذه الطائفة وكثرة أعدادها واتساع حيلها حتى أصبحت تمثل تهديدًا حقيقيًّا لأعدائها.

كانت نقطة البدء في ضعف الخلافة وعجزها عن إحكام قبضتها على رؤوس الأموال وكبح جماحها، فشهدت نموًّا مطردًا وصبغت المجتمع بتيارات وتوجهات كانت لها أبعد الأثر في الناس، كان في مقدمة هذه التوجهات؛ تعاظم قيمة المال لما كان يمثله من قيم القوة والسلطة والعزة والكرامة، ولم يقتصر دوره عند هذا الحد، بل غزا حياة الناس الأسرية مهددًا أواصرها بالانفصال وعلاقات أفرادها بالتفكك والانقسام، الأمر الذي أسفر عن سعي المجتمع بكل طوائفه وفئاته سعيًا محمومًا نحو اكتساب المزيد منه سواء بالطرق الشرعية أو بغيرها، وصاحب هذا التوجه الحرص على اكتنازه والبخل به والاقتصاد في إنفاقه، وكان هذا التيار من القوة بحيث فرض نفسه على كثير من علماء وأدباء هذا الزمان، فخصصوا له بعض مؤلفاتهم ومنهم الجاحظ والخطيب البغدادي وغيرهما، الأمر الذي ألقى بظلاله الكئيبة على المجتمع فتوقفت الأموال عن الدوران وكسدت التجارات والأسواق وضعفت حركة البناء والعمران ولم يقتصر الأغنياء عند هذا الحد، بل كانت لهم ممارساتهم الاقتصادية وجرائمهم المالية والتي كان لها أبعد

الأثر في تكريس الفقر وزيادة معاناة الناس.

أما الأثر النفسي، فكان أعمق، إذ شاعت العداوة ومشاعر الحقد والحسد والبغضاء، الأمر الذي أسفر عن فوارق طبقية وصراعات اجتماعية، كان للمحتالين دورهم البارز فيها بما امتلكوه من مواهب فذة وملكات ذهنية وعقلية كبيرة مكنتهم من التصدي لهؤلاء الأثرياء، واتخذوا من الحيلة والمكر والخداع شباكًا لكسب معاشهم، وانتزاع حقوقهم والتعبير عن غضبهم ورد الإهانة لأعدائهم وتهديد أمنهم.

سعت هذه الدراسة للتعمق في حياة هؤلاء المحتالين من خلال إلقاء الضوء على فكرهم وفلسفتهم ونظرتهم للحياة، ورؤيتهم لأنفسهم، وأنواعهم ووسائل تحايلهم ونوادر حيلهم وأكاذيبهم، فضلاً عن انتماءاتهم الطبقية وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية، وجماعات الدعم والمساندة التي كانوا يرتكزون عليها، وأخيرًا موقف الدولة والقضاء والمجتمع منهم.

الهوامش

(*) عرف ابن خلدون **المعاش** بأنه هو " عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، وهو مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يَحْصُل إلا بوجوه المعاش، جُعلت موضعًا له على طريق المبالغة". ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الخامسة، دار القلم، بيروت ١٩٨٤م، ص٣٨٢.

(١) ابن منظور: لسان العرب؛ دار صادر، بيروت، (د.ت)، المجلد ١١، ص١٨٥-١٨٦؛ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج٣، ص٣٦٣.

(٢) الشاطبي: الموافقات، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصه وقدم له: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، المجلد الأول، ص١٠ وما بعدها؛ سمر سمير صادق عيد: الاضطرار في القواعد الفقهية بين الشريعة الإسلامية، والقانون المدني، دار الفكر والقانون، المنصورة، ٢٠١٨م، ص١٠٥؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعد الشبرمي: جريمة النصب والاحتيال، مجلة العدل، العدد (٣٩) رجب ١٤٢٩هـ، ص١٧١، ١٧٧.

(٣) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: سعيد عبدالستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٣٦٩هـ/١٩٦٩م، ج٤، ص٧٠-٧١.

(٤) فادية يحيى أبو شهبة: النظرية العامة للطرق الاحتيالية في التشريع المصري والمقارن، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق، جامعة عين شمس ١٩٨٤م، ص٢-٤.

(٥) الطرار: الذي يختلس المال خفية، من (طرّ) أي شق أو قطع، والعيار في اللغة هو الرجل كثير الذهاب والمجيء وكثير الطواف بلا عمل، ومنه الرجل الذي يخلى سبيل نفسه فلا يردها عن هواها، ولمزيد من التفاصيل حول هذه الفئات، يمكن الرجوع إلى: بديع الزمان الهمذاني: مقاماته "المقامة الرصافية "، شرح: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ص٢١٥، ٢٢٣.

(٦) الجاحظ: البخلاء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٧٤، ١٧٦-١٧٧.

(٧) المصدر السابق، ص١٧٤.

(٨) الثعالبي: لطاف المعارف، تحقيق: إبراهيم الإبياري، حسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص١١٨-١١٩، ١٢١-١٢٢.

(٩) لمزيد من التفاصيل عن قطائع العباسيين وهباتهم وعطاياهم، راجع: البلاذري: فتوح البلدان، وضع حواشيه، عبدالقادر محمد علي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٧٩-١٨٠؛ ابن طيفور: كتاب بغداد، صححه: محمد زاهد الحسن الكوثري، عني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص١٢٥-١٢٧، ١٣٢-١٣٤، ١٤٧-١٤٨، ١٥١، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة منقحة، دار المعارف، مصر ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ج٨، ص٨٤-٨٥، ١٥٧-١٥٨، ١٧٢-١٧٥، ٣١٥؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، دار صار، بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص١٩٣-٢٠٨؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة (د.ت)، ج٢، ص٣٢.

(١٠) ابن خلدون: المقدمة، الطبعة الخامسة، دار العلم، بيروت ١٩٨٤م، ص١٧٢-١٧٤.

(١١) الماوردي: الأحكام السلطانية، راجعة: محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٩٧٨م، ص٩٢، ١٣٩-١٤٠؛ ؛ عبدالحسين مهدي الرحيم: الخدمات العامة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد ١٩٨٧م، ص١٢٥-١٢٦ وما بعدها.

(١٢) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالحي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.

(١٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، رسالة المعاش والمعاد، ص٢٨٣-٢٨٥؛ مقالة العثمانية، ص٣٧.

(١٤) عن عظم دخل الدولة وكثرة مواردها واتساع تجاراتها، انظر: الصابئ: رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص٨-٢٠؛ ابن خلدون: المقدمة، ص١٧٥؛ جورج فضلو حوارني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة: يعقوب بكر، تقديم، يحيى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م، ص٢٠٠-٢٠١؛ هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية: أحمد محم

د رضا، راجعه وقدم له: عز الدين فودة، مصر ١٩٨٥م.

(١٥) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج١، ص٣١-٣٢؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد الدكن، الهند ١٣٥٧هـ/١٣٦٠م،

ج٦، ص١٢٢؛ أخبار الحمقى والمغفلين، ضبطه وقدم له: محمد عبدالقادر عطا، دار الفجر للتراث، القاهرة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٥.

(١٦) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٨م، ص١٢٥ وما بعدها.

(١٧) الجاحظ: البخلاء، ص٣٥؛ البيان والتبيين، بيروت ١٩٦٨م، ج١، ص٢٨٨، ج٣، ص٤٤٣؛ بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة المطلبية)، ص٤٣٩.

(١٨) الجاحظ: البخلاء، ص١٤-١٥.

(١٩) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٣٥، ج٣، ص٤٤٣؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، حققه وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت)، ص٣١٤-٣١٥.

ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٠٤؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٢٧٤-٢٧٦.

(٢٠) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج٢، ص٤٨-٥١.

(٢١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٣٠.

(٢٢) الأبشيهي: المصدر السابق، ج٢، ص٥١، ٥٧.

(٢٣) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، صححه: سالم الكونكوي الألماني، مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية، حيدرأباد الدكن، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ص١٥٣؛ أمل إبراهيم أبو ستة: الجوهر وتجاره ببغداد، ودورهما في السياسة العباسية من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، ابن الجصاص نموذجًا، حولية مجلة المؤرخ المصري، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يوليو ٢٠١٩م.

(٢٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٣٠.

(٢٥) البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص١٤١-١٤٢، ٢٧٣، ٢٧٦؛ الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ج٢، ص٤٧، ٥٠-٥١.

(٢٦) ابن الجوزي: مقاماته، تحقيق: محمد نغش، دار فوزي للطباعة، القاهرة ١٩٨٠م، ص١٧٦.

(٢٧) وكيع: أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت (د.ت)، ج٢، ص٣٨٦.

(٢٨) الجاحظ: البخلاء، ص١٨٣؛ البيان والتبيين، ج١، ص١٣٠.
(٢٩) وكيع: المصدر السابق والصفحة.
(٣٠) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية، إدارة الطباعة المنيرية، مكتبة الدعوة الإسلامية، الأزهر، القاهرة ١٣٦٨م، ص٤٠٣.
(٣١) وكيع: المصدر السابق، ج٢، ص٦٨، ١٣٧، ١٦١.
(٣٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٦١، ج٣، ص٧٦-٧٧ (حاشية)، ٨١.
(٣٣) الجاحظ: البخلاء، ص٣٥؛ البيان والتبيين، ص١٣٠.
(٣٤) الجاحظ: البخلاء، ص١٩٠-١٩١.
(٣٥) نفس المصدر: ص٤٨.
(٣٦) ابن خلدون: المقدمة، ص١٧٢-١٧٣، ٣٨٥-٣٨٦.
(٣٧) ابن الجوزي: مقاماته، ص٣٧٦-٣٧٧.
(٣٨) الجاحظ: البخلاء، ص٢٦، ٢٩.
(٣٩) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص٤٣٥، ٤٥٢.
(٤٠) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٦.
(٤١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص٣٥٥-٣٥٦.
(٤٢) الثعالبي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٢.
(٤٣) سورة الإسراء، الآية ٢٩؛ الجاحظ: رسالة المعاش والمعاد، ص١٣.
(٤٤) البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٢٥٢.
(٤٥) نفس المصدر، ص٢٥٤؛ الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ج١، ص١٧١، ١٨٤.
(٤٦) الجاحظ: البخلاء، ص٤٨؛ البيهقي: المصدر السابق، ص٢٥٢ وما بعدها.
(٤٧) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص٣٥٥-٣٥٦.
(٤٨) الأبشيهي: المصدر السابق، ج١، ص١٧١.

(٤٩) الجاحظ: رسالة في الحاسد والمحسود، ضمن كتاب رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣، ٧، ١١، ٢٣؛ المحاسن والأضداد، المكتبة التجارية، مصر ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م، ص٦٩.

(٥٠) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج١، ص٣١-٣٢؛ ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين، ص٣٥.

(٥١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي عبدالمجيد، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ج٤، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٥٢) وكيع: أخبار القضاة، ج٢، ص٦١، ٧١، ١٢٥، ١٣٢، ١٧٦.

(٥٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص٣٩٧.

(٥٤) أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ص٨٠؛ الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، المجلد الأول، ص٣٨٧.

(٥٥) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٨٦.

(٥٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٤١.

(٥٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص٣٩٥.

(٥٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص١٠.

(٥٩) وكيع: المصدر السابق، ج٢، ص٥٩؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص١٣٥-١٣٦؛ ابن حجة الحموي: ثمرات الأوراق في المحاضرات، بهامش كتاب الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج١، ص١٤٣-١٤٨؛ الأبشيهي: المصدر السابق، ج١، ص١٥-١٦، ج٢، ص١٠٢.

(٦٠) وكيع: المصدر السابق، ج٢، ص٦١، ١٢٥.

(٦١) نفس المصدر، ج٢، ص١٣٢.

(٦٢) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق منذ عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ص٢٣؛ أمل إبراهيم أبو ستة: تاريخ الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠١٠م، ص١٥٠-١٥١.

(٦٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٠٤.

(٦٤) نفس المصدر: ص٣٨٢-٣٨٣.

(٦٥) عن كثرة المصادرات ونهب أموال الدولة، راجع: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٩-١٠؛ الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص٤٩-٥٢، ٦٣، ٨٩، ٩٧؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة (د.ت)، مجلد ١، ج٢، ص٣٧؛
Bowen, (Harold): The Life and times of Ali ibn isa the good vizier, Cambridge, 1928, p77
Sourdel, Dominique: les vizirat Abbaside. damas 1959, vol 2, p. 105.

(٦٦) الصابئ: المصدر السابق، ص١١٩.

(٦٧) الطبري: المصدر السابق، ج٨، ص٥٥١.

(٦٨) الشاطبي: الموافقات في أصول الفقه، ج١، ص٣٨٨ وما بعدها.

(٦٩) الجاحظ: البخلاء، ص٣٥-٣٦؛ وكيع: المصدر السابق، ج٢، ص٧١.

(٧٠) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٧٢-٣٧٣.

وللمزيد من التفاصيل حول مظاهر الترف والرفاهية في المجتمع العباسي، انظر:
Muhammd Manzir Ahisan: Social life under the Abbasids. London 1973, pp. 377-378;
Muir: The caliphate, its rise, decline and fall. London 1987, 201.

(٧١) من الآيات التي جاءت في جواز الانتقام لرد الاعتداء، قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (سورة النحل:١٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ (الشورى: ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤١). أما عن الحديث، فهو حديث صحيح ومتفق عليه، رواه كل من أبي هريرة، وجابر بن عبدالله، في صحيح أبي داود، أخرجه الإمام البخاري ٣٠٢٩، ومسلم ١٧٤٠.

(٧٢) الحريري: مقاماته، دار صادر، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٥١، ٢٥٥؛ ابن خلدون: المصدر السابق والصفحات.

(٧٣) وفي هذا المعنى قال أحدهم:

سَـــــخُفَ الزَّمَـــــانُ وَأَهْلُـــــهُ فَرَكِبْـــتُ مِـــنْ سُـــخْفِي مَطِيَّـــهْ

بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة المجاعية)، ص١٦٧.

(٧٤) راجع مبحث موقف الدولة والمجتمع من المحتالين في هذا البحث.

(٧٥) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٤.

(٧٦) سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٧٧) سورة الجاثية، الآية ١٣.

(٧٨) سورة الذاريات، الآية ١٩.

(٧٩) سورة النور: الآية ١٣.

(٨٠) سورة الحديد: الآية ٧.

(٨١) الطبري: المصدر السابق، ج١٠، ص١٠؛ ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١١٥-١١٧.

(٨٢) الحريري: مقاماته، ص٣٤.

(٨٣) نفس المصدر: ص٤٣١-٤٣٢.

(٨٤) بديع الزمان الهمذاني" مقاماته، ص١٦٧.

(٨٥) الحريري: المصدر السابق، ص١١٠.

(٨٦) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، (المقامة القردية)، ص١١٢.

(٨٧) المبرد: الكامل، ج١، ص٣٥٥-٣٥٦؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٢٥٢؛ ابن الجوزي: مقاماته، ص٩٠؛ الأبشيهي: المصدر السابق، ج١، ص١٧١.

(٨٨) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٤-١٧٦، ١٧٨.

(٨٩) وفي ذلك قال أحدهم ساخرًا من الأثرياء:

النَّـــاسُ حُمْـــرٌ فَجَـــوِّزْ ... وابْـــرُزْ عَلَـــيْهِمْ وبَـــرِّزْ

حَتَّـــى إِذَا نِلْـــتُ مِنْهُـــمْ ... مَـــا تَشْـــتَهِيهِ فَفَـــرْوِزْ

حُمر: جمع حمار، وجوز: أي قدهم، وبرز عليهم: أي تفوق عليهم، وفروز: أي فارقهم ولو بالموت. بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة الأصفهانية)، ص٦٥.

(٩٠) الحريري: مقاماته، ص٢٥١-٢٥٢.

(٩١) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٨٥.

(٩٢) وفي ذلك افتخر أحدهم بذكائه ودهائه، فقال:

أَنَـــا أُطْرُوفَـــةُ الزَّمَـــانِ ... وَأُعْجُوبَـــةُ الْأُمَـــمِ

وَأَنَـــا الْحَـــوْلُ الَّـــذِي اِحْتَـــالَ ... فِـــي الْعُـــرْبِ وَالْعجـــمِ

غيـــر أَنـــي اِبْـــنُ حاجَـــةٍ ... هَاضَـــهُ الـــدَّهْرَ وَاِهْتَضَـــمَ

وَأَبُـــو صَـــبِيَّةً بَـــدْوًا ... مِثْـــلُ لَحْـــمٍ عَلَـــى وَضَـــمَّ

وَأَخُـــو الْعَيْلَـــةَ الْمَـــعْ ... يَـــلَّ إِذَا اِحْتَـــالَ لَـــمْ يلـــم

وأبدع آخر افتخارًا بحيله واحتياله، فقال:

يـــا لَيـــتَ شِـــعري أدَهْـــري ... أحـــاطَ عِلْمـــاً بقَـــدْري
وهـــلْ دَرَي كُنْـــهَ غـــوْري ... فـــي الخَـــدْع أم لـــيس يـــدْري
كـــمْ قـــدْ قمَـــرْتُ بَنيـــهِ ... بحيلَتـــي وبمَكْـــري
أصْـــطادُ قوْمـــاً بـــوَعْظٍ ... وآخـــرينَ بشِـــعْرِ
وأســـتفِزُّ بخَـــلٍّ ... عقْـــلاً وعَقْـــلاً بخَمْـــرِ
وتـــارَةً أنـــا صـــخْرٌ ... وتـــارَةً أُخـــتُ صـــخْرِ

(٩٣) وبفصاحتهم وبلاغتهم، افتخر أحدهم، فقال:

وإنّمـــا لـــي فُنـــونُ سِـــحرٍ ... أبـــدَعْتُ فيهـــا ومـــا اقتَـــدَيتُ
لـــمْ يحْكِهـــا الأصـــمَعيُّ فيمـــا ... حكَـــى ولا حاكَهـــا الكُمَيـــتُ
اتَخِـــذْتُها وُصـــلَةً الـــى مـــا ... تَجْنيـــهِ كَفّـــي متـــى اشـــتَهَيْتُ
ولـــوْ تَعافَيتُهـــا لحالَـــتْ ... حـــالي ولـــمْ أحْـــوِ مـــا حوَيْـــتُ
فمهّـــدِ العُـــذْرَ أو فســـامِحْ ... إنْ كُنـــتُ أجرَمْـــتُ أو جنَيْـــتُ

الحريري: مقاماته، ص٤٩-٥٠، ١١٠، ١١٧.

(٩٤) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٥-١٧٦.

أما عن الحديث النبوي " إن من البيان لسحرًا، "فهو حديث صحيح رواه الإمام مالك بن أنس في الموطأ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رواية ابن عباس وابن مسعود وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم جميعًا. راجع في ذلك: مالك بن أنس: الموطأ، صححه وأخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥١م، ج٢، ص٩٨٦، فهرس أحاديث وأثار المسند مرتبًا على حروف المعجم، إشراف: سمير طه المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م، رقم الحديث ٢٧٦٠، ح١٠، ص٣٠٣.

(٩٥) بديع الزمان الهمذاني: المقامات، ص١٢١.

(٩٦) الحريري: مقاماته، ص٢٣؛ الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، محمد نغش، مراجعة: عبدالعزيز الأهواني، الهيئة العام لقصور الثقافة، العدد (٣٢) من سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨م، ص١-٢.

وعن اتساع ثقافاتهم وإلمامهم بشتى العلوم والمعارف، راجع: مقامات بديع الزمان الهمذاني: (المقامة العراقية)، ص١٨٦-١٨٧؛ وكذلك ابن الجوزي: مقاماته، ص١٦٦-١٦٧، والتي جاء فيها على لسان أحدهم:

عرضتُ عَلَى الْخَبَّازِ نَحْوَ الْمُبَرَّدِ وَكُتُبًا حِسَانًا لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَد
وَرُؤْيَا ابْنِ سَيْرِينَ وَخَطُّ مُهَلْهَلٍ وَتَوْحِيدَ عمر بَعْدَ فِقْهِ مُحَمَّد
وأنشدته شِعْرَ الْكُمَيْتِ وجرول وَغَنِيَّتُهُ لَحْنِ الْغَرِيضِ وَمَعْبَد
فَمَا نُفعْتِنِي دُونَ أَنَّ قِلْتِ هاكَهَا مدورةً بيضاء تَطِنُّ عَلَى الْيَدِ

(٩٧) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته، ٦٤-٦٥؛ الحريري: مقاماته، ص٩٩.

(٩٨) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة المارستانية)، ص١٦٠-١٦١. وغارب: يعني متفرد ومتفوق.

(٩٩) الحريري: مقاماته، ص١١٠.

(١٠٠) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته، ص١٦٠.

(١٠١) الجاحظ: البخلاء، ص٤٨.

(١٠٢) الحريري: مقاماته، ص١٠٩.

(١٠٣) والمعنى استغللت غفلتهم وضعف عقولهم بذكائي، فأخذت منهم الخير ولم أعطهم سوى الكذب والخداع، بديع الزمان الهمذاني: مقاماته، (المقامة الموصلية)، ص١٢٠.

(١٠٤) نفس المصدر، ص١٨-١٩، ٧٠، ٩٠-٩١، ١٠٦-١٠٧.

(١٠٥) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ج٢، ص٤٩-٥٠.

(١٠٦) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٥٧، ١٨٦-١٨٧.

(١٠٧) نفس المصدر، ص١٩٨.

(١٠٨) الحريري: مقاماته، ص١٠٢.

(١٠٩) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة الأصفهانية)، ص٦٣-٦٤، و(المقامة القردية)، ص١١١-١١٢.

(١١٠) الجاحظ: البخلاء، ص٥٠-٥٣.

(١١١) بديع الزمان: المصدر السابق، ص٩٠-٩١.

(١١٢) الحريري: المصدر السابق، ص٣٤.

(١١٣) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، ص١٨-١٩، ٩٠-٩١، ١٠٦-١٠٧.

(١١٤) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٤-١٧٥.

(١١٥) جورج فضلوا حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٢٠٠ومابعدها .

(١١٦) ابن خلدون: المقدمة، ص١٧٢-١٧٣، ٣٧٢-٣٧٣.

(١١٧) الأبشيهي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٩-٥٠.

(١١٨) نفس المصدر، والجزء والصفحات.
(١١٩) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٤٠١.
(١٢٠) الأبشيهي: المصدر السابق، ص٤٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص٥٢٤-٥٢٦.
(١٢١) الأبشيهي: المصدر السابق والجزء والصفحات.
(١٢٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٨٢-٣٨٦.
(١٢٣) راجع في ذلك: الجاحظ: البخلاء، ص٣٥؛ الأبشيهي: المصدر السابق والجزء والصفحات.
(١٢٤) الجاحظ: المصدر السابق، ص٣٥-٣٦؛ ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١١٤ وما بعدها.
(١٢٥) نقس المصدر، ص١١٥-١١٧.
(١٢٦) الأبشيهي: المصدر السابق، ج١، ص٩٩.
(١٢٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص١٢٣، ١٢٥.
(١٢٨) نفس المصدر، ص١٥٦-١٥٧، ١٨٥-١٨٧، ١٩١، ١٩٨.
(١٢٩) نفس المصدر، ص٣٧٧-٣٧٨، ٣٩٠؛ الأبشيهي: المصدر السابق والجزء والصفحات.
(١٣٠) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق في المحاضرات، ج١، ص٩٠-٩١.
(١٣١) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة الرصافية)، ص٢١٥.
(١٣٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٥٤؛ ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٣٣.
(١٣٣) نفس المصدر، ص٦٩، ١٣٣.
(١٣٤) نفس المصدر، ص٦٨، ٤٠٠-٤٠١.
(١٣٥) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة الحرزية)، ص١٤٦-١٤٧.
(١٣٦) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص٥٤-٥٥؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص١٤١-١٤٢.
(١٣٧) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق والمقامة السابقة والصفحات.
(١٣٨) نفس المصدر، (المقامة الأصفهانية)، ص٦٣-٦٥.
(١٣٩) نفس المصدر، (المقامة الموصلية)، ص١١٣-١١٧.
(١٤٠) نفس المصدر، نفس المقامة، ص١١٧-١١٩.
(١٤١) نفس المصدر، المقامة القردية، ص١١١-١١٢.
(١٤٢) من نوادر المتنبئين ما ذكره ابن طيفور في كتاب بغداد عن أحدهم ممن تنبأ في عهد

الخليفة المأمون مدعيًا أنه إبراهيم عليه السلام ، فطالبه المأمون بأن يأتي بمعجزات إبراهيم الخليل أو موسى الكليم، فلما صعب عليه ذلك سأله بأن يأتي بمعجزة عيسى عليه السلام. فسأل المحتال وما هي: فقال: "إحياء الموتى، فرد عليه: أفعل يا أمير المؤمنين أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكتم ، ثم أحييه لكم الساعة ، فقال القاضي: أنا أول من آمن بك وصدق "، ويذكر الأبشيهي في هذا الصدد أن امرأة تنبأت في عهد الخليفة المتوكل، فقال لها أنتِ نبية، فقالت: نعم، فقال: أتؤمنين بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فقالت: نعم. فقال: ولكنه قال لا نبي بعدي، فقالت: قال عليه السلام لا نبي بعدي ولم يقل لا نبية بعدي، فضحك المتوكل وأطلقها بعد أن نالت ما وهبه لها.

ابن طيفور: كتاب بغداد، ص٣٩-٤٠؛ الأبشيهي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٧٢، ٢٧٥.

(١٤٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٢٨-١٢٩.

(١٤٤) المتطفل مأخوذ من الطفل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته، أي إن أمره يظلم على القوم، فلا يدرون من دعاه، وكيف دخل عليهم، والعرب تسميه الوارش والرائش والواغل.

الخطيب البغدادي: كتاب التطفل وحكايات الطفيليين ونوادر كلامهم، تحقيق: عبدالله عبدالرحمن عسيلان، السعودية، دار مدين، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٦١؛ ابن الجوزي: الأذكياء، مصر، المطبعة العامرة الشرقية ١٣٠٤هـ، ص١٣٨.

(١٤٥) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ص١٥٥؛ ابن الجوزي: الأذكياء، ص١٣٩-١٤٣.

(١٤٦) ومن طرائف ما ورد في المصادر الأدبية وصية أوصى بها أحد الطفيليين ولده قبل وفاته فقال له: إذا دخلت عرسًا فلا تلتفت تلفت المريب، وتخير المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وانه، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء، ثم أنشد قائلاً:

لَا تَجْزَعْنَ مِنَ الْغَرِيبِ ... وَلَا مِنَ الرَّجُلِ الْبَعِيدِ
وَأُدْخُلْ كَأَنَّكَ طَابِخٌ ... بِيَدِيكَ مِغْرَفَةَ الْحَدِيدِ
مُتَدَلِّيا فَوْقَ الطَّعَامِ ... تُدْلِي الْبَازَ الصَّيود
وَاطْرَحْ حَيَاءَكَ إِنَّمَا ... وَجْهُ الطُّفَيْلِيِّ مِنْ حَدِيدِ

ابن الجوزي: المصدر السابق، ص١٤٠-١٤١؛ ولمزيد من حيل المتطفلين، راجع: الأبشيهي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥؛ ابن حجة الحموي: المصدر السابق، ج١، ص١٥٤.

(١٤٧) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٨.

(١٤٨) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن حجة الحموي: ثمرات الأوراق، ج١، ص٩٠-٩١.

(١٤٩) الحريري: مقاماته، ص٦١.

(١٥٠) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص٣٩-٤٠؛ الأبشيهي: المصدر السابق، ج١، ص٢٧٢.

(١٥١) بديع الزمان الهمذاني: مقاماته (المقامة المضيرية)، ص١٢٤-١٢٥.

(١٥٢) الحريري: مقاماته، ص٦١.

(١٥٣) نفس المصدر، ص٩٠.

(١٥٤) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، (المقامة الأزادية)، ص١٨-١٩؛ الحريري: المصدر السابق، ص٦١، ٧٤.

(١٥٥) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، (المقامة الساسانية)، ص١٠٦.

(١٥٦) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص٥٤-٥٥.

(١٥٧) وكان مما قالوه في ذم الزمان:

هَـــذا الزَّمَـــانُ مَشُـــؤومُ ... كَمَـــا تَـــراهُ غَشُـــومُ

الحُمْـــقُ فِيـــهِ مَلِـــيحٌ ... والعِقْـــلُ عَيْـــبٌ وَلُـــومُ

والمَـــالُ طَيْـــفٌ، ولكِـــنْ ... حَـــوْلَ اللئـــامِ يحـــومُ

وقال آخر: لقد فسد الزمان، وعدم المعوان، وعم العدوان، والله المستعان.

وكان ابن لنكك البصري – أشهر أدباء البصرة وظرفائها – ممن راجت أشعاره في ذم الزمان وأهله، ومنها قوله:

يـــا زَمانَـــا أَلْـــبِس الْأَحْـــرارَ ... ذِلًّا وَمُهَانُـــــــــــــــــة

لَسْـــتُ عنـــدى بِزَمـــانٍ ... إِنَّمَـــا أَنْـــتَ زَمانُـــة

كَيْـــفَ نَرْجُـــو مِنْـــكَ خَيْـــرًا ... وَالْعَلـــى فِيـــكَ مَهَانَـــة

أَجُنُـــونٌ مَـــا نَـــرَاهُ ... مِنْـــكَ يَبْـــدُو أَمْ مَجَّانـــة

والزمانة أي المرض. وللمزيد يمكن الرجوع إلى: بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، ص١٠٩-١١٠، ١١٢، ١٦٧؛ الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج٢، ص٤٠٨-٤١٠؛ الحريري: المصدر السابق، ص٢٤٤.

(١٥٨) قال تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ سورة النساء، الآية ٢٩؛ وقال أيضًا عز وجل: ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴾ سورة الأنفال، الآية ٢٧؛ وقال رسول الله ﷺ "من غشنا فليس منا"، حديث صحيح متفق عليه رواه البخاري ومسلم.

(١٥٩) حديث صحيح متفق على صحته، رواه البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. راجع في ذلك السيوطي: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م، ص٨-٩.

(١٦٠) المبرد: الكامل، ج٢، ص٤٥-٤٧؛ وكيع: أخبار القضاة، ج٢، ص٥٩؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص١٣٥-١٣٦.

(١٦١) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ج٢، ص٤٩.

(١٦٢) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص٤٠١.

(١٦٣) الأبشيهي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٧١-٢٧٢.

(١٦٤) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن حجة الحموي: المصدر السابق، ص٩٠-٩١.

(١٦٥) نبوه أي رفعة وسطوة، ومعتبة أي موجدة وهي الغضب. الحريري: المصدر السابق، ص٦٠.

(١٦٦) الصابئ: المصدر السابق والصفحات.

(١٦٧) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٤.

(١٦٨) نفس المصدر، ص١٧٥-١٧٨.

(١٦٩) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٨٢، ٣٩٦.

(١٧٠) ابن الجوزي: مقاماته، (المقامة المطلبية)، ص٣٧٧.

(١٧١) بديع الزمان الهمذاني: المصدر السابق، ص٤٤١-٤٤٢؛ البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٢٤٩؛ ابن الجوزي: مقاماته، ص١٧٦، ٣٨١.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

القرآن الكريم.

الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م) شهاب الدين أحمد بن منصور:

- المستطرف من كل فن مستظرف، وبهامشه كتاب: " ثمرات الأوراق في المحاضرات " لتقي الدين أبي بكر بن علي بن حجة الحموي القادري الحنفي، جزآن في مجلد الطبعة الأخيرة منقحة، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) علي بن أحمد بن أبي الكرم:

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٧٩هـ/١٩٨٢م.

بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) أبو الفضل أحمد بن الحسين:

- مقاماته، شرحها: محمد محي الدين عبدالمجيد، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر:

- فتوح البلدان، وضع حواشيه: عبدالقادر محمد علي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

البيروني (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) أبو الريحان محمد بن أحمد:

- الجماهر في معرفة الجواهر، صححه: سالم الكرنكوي الألماني، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

البيهقي (ت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) إبراهيم بن محمد:

- المحاسن والمساوئ، دار صادر بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

التنوخي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) أبو علي المحسن بن علي بن محمد:

- جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالحي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.

الثعالبي (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل:

- لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الإبياري، حسن كامل الصيرفي، دار أحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) أبو عثمان عمرو بن بحر:
- المحاسن والأضداد، المكتبة التجارية، مصر ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م.
- البخلاء، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.
- البيان والتبيين، بيروت ١٩٦٨م.
- رسائل الجاحظ، (رسالة المعاش والمعاد)، (رسالة في الحاسد والمحسود)، (مقالة في العثمانية)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤م، ١٩٧٩م.

ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي:
- كتاب الأذكياء، المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن ١٣٥٧هـ، ١٣٦٠هـ.
- تلبيس إبليس، عنيت بنشره وتصحيحه، والتعليق عليه للمرة الثانية، إدارة الطباعة المنيرية، مكتبة الدعوة الإسلامية، الأزهر، القاهرة ١٣٦٨هـ.
- مقامات ابن الجوزي، تحقيق: محمد نغش، دار فوزي للطباعة، ١٩٨٠م.
- أخبار الحمقى والمغفلين، ضبطه وقدم له: محمد عبدالقادر عطا، دار الفجر للتراث، القاهرة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م) أبو بكر تقي الدين علي الحنفي:
- ثمرات الأوراق فيما طاب من نوادر الأدب وراق، والمعروف بـ " ثمرات الأوراق في المحاضرات "، على هامش كتاب الأبشيهي: المستطرف من كل من مستظرف، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

الحريري (ألفه سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م) القاسم بن علي البصري:
- مقامات الحريري، دار صادر، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت:
- كتاب التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن عسيلان، دار مدني، السعودية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) عبدالرحمن بن محمد:
- المقدمة: الطبعة الخامسة، دار القلم، بيروت ١٩٨٤م.

الزبيدي (ت ٣٧٩هـ/١٠٠٩م) أبو بكر مرتضى الحسيني الزبيدي:
- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: سعيد عبدالستار فراج، سلسلة التراث العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٣٦٩هـ/١٩٦٩م.

السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) الإمام جلال الدين عبدالرحمن:
- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.

الشاطبي (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي:
- الموافقات في أصول الفقه، تقديم: بكر بن عبدالله أبو زيد، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبوعبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان، (د.ت).

الصابئ (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) أبو الحسين هلال بن المحسن:
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٩٥٨م.
- رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير:
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.

ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب:
- كتاب بغداد، صححه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) عماد الدين إسماعيل:
- المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة (د.ت).

الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي:
- القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م) إمام الأئمة وعالم المدينة:
- الموطأ، صححه ورقمه وأخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥١م.

الماوردي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٦م) أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب:
- الأحكام السلطانية، راجعه: محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية، مصر ١٩٧٨م.

المبرد (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) أبو العباس محمد بن يزيد:
- الكامل في اللغة والأدب، حقق أصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت).

المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي:

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

ابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري:

- لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م.

وكيع: (ت ٣٠٦هـ/٩٧٠م) محمد بن خلف بن حيان:

- أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت (د.ت).

الوهراني (ت في القرن السادس الهجري) ركن الدين محمد بن محمد المغربي:

- مناسات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، محمد بغش، مراجعة: عبدالعزيز الأهواني، العدد (٣٢) من سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨م.

أبو يوسف (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) يعقوب بن إبراهيم القاضي:

- كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ثانيا: المراجع:

- **أمل إبراهيم أبو ستة:** تاريخ الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠١٠م
- **جورج فضلوا حوراني:** العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة: يعقوب بكر، تقديم: يحيى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.
- **سمر سمير صادق:** الاضطرار في القواعد الفقهية بين الشريعة الإسلامية والقانون المدني، دار الفكر والقانون، المنصورة ٢٠١٨م.
- **سمير طه المجذوب:** فهرس أحاديث وآثار المسند مرتبًا على حروف المعجم، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م.
- **عبدالحسن مهدي الرحيم:** الخدمات العامة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، (آفاق عربية)، بغداد ١٩٨٧م.

- **محمد جمال الدين سرور:** تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق منذ عهد نفوذ الأتراك حتى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣١٤هـ/١٩٦٥م.
- **هايد:** تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمه من الفرنسية، أحمد محمد رضا، راجعه وقدم له: عز الدين فودة، مصر ١٩٨٥م.
- **Bowen, (Harold):** The Life and times of Ali ibn isa the good vizier, (Cambridge, 1928).
- **Muhammd Manzir Ahisan:** Social life under the Abbasids (London 1973).
- **Muir:** The caliphate, its rise, decline and fall (London 1987).
- **Sourdel, Dominique:** les vizirat Abbaside (damas 1959).

ثالثا: الأبحاث:

- **أمل إبراهيم أبو ستة:** الجوهر وتجاره ببغداد ودورهما في السياسة العباسية من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، ابن الجصاص نموذجًا، حوليات مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يوليو ٢٠١٩م.
- **عبدالعزيز بن عبدالرحمن سعد الشبرمي:** جريمة النصب والاحتيال، مجلة العدل، العدد (٣٩)، مكة المكرمة رجب ١٤٢٩هـ.

رابعاً: الرسائل العلمية:

- **فادية يحيى أبو شهبة:** النظرية العامة للطرق الاحتيالية، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس ١٩٨٤م.